الباب الأول
الشعر الإِسْلامِىّ فىِ الفتوح

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الفتوح فى صَدْر الإسْلام

١ ـ دواعى الفتوح (الجهاد)

عجيب أن تقتدر أمة ناشئة كأمة العرب المسلمين، تتعاورها الفتن والاضطرابات، وحركات الارتداد والانتقاض من كل جانب، على أن تهدم إمبراطوريتين عظيمتين لتشيد على أنقاضهما إمبراطورية عظيمة، فى مدى لا يتجاوز عشر سنوات، تشتمل على العراق والشام جميعا وتتخطاهما، فتشتمل على فارس ومصر، حتى تبلغ حدودها الصين من الشرق، وتونس من الغرب، وبحر قزوين من الشمال، والسودان من الجنوب..

إن هذه لمعجزة بلا ريب؛ ووجه الإعجاز فيها أنها حدثت بأيدى العرب الذين كانوا إلى سنوات قبائل متنافسة، لا تهدأ منازعتها، ولا تطمئن فيما بينها إلى قرار. وبدهى أن قيام الإسلام هو أول هذه العوامل التى حققت المعجزة، فهو الذى وحد العرب بعد شتات، وجعل قبائلهم المتنافرة أمة متضافرة، ودفعهم إلى إذاعة تعاليمه، وإعلاء كلمته، ودفع من يريد فتنة الناس عنه.

وقد كان العرب قبل الإسلام ضعافا أمام الفرس والروم، بل إن مناطق كثيرة من بلادهم كانت تخضع لنفوذهما، فلما أسلموا أسرع هذا النفوذ إلى الانحسار والزوال عن بلادهم كلها، ولم يلبثوا حتى تخطوا إليهما التخوم، وواجهوا جيوشهما التى حسبوها من قبل لا تغلب، وحاصروا حصونها التى توهموها لا تؤخذ، فإذا هى تنقض تحت صلابة إيمانهم من قواعدها. وإنما اقتدر العرب بعد إسلامهم على الفرس والروم لأن الإسلام نشأهم نشأة جديدة، وبث فيهم روحا أحالتهم خلقا جديدا؛ ذلك بأن اقتحم على نفوسهم مناطق عقائدهم، واتصل بوجدانهم فى صميمه، وألقى فيه بذور التوحيد والإيمان والأخوة والتوحد، صافية فى جوهرها، نقية من كل شائبة بسيطة البساطة كلها، فتحررت نفوسهم من قيود الوهم، وتطهرت قلوبهم من رجس الوثنية، وشعر كل واحد منهم بأنه لا حجاب بينه وبين الله ما عمل صالحا واتقاه حق تقواه.

أخذ الإيمان بمجامع قلوبهم، فجمع بينهم بما سن من نظم روحية واجتماعية، دفعت فى أفئدتهم قوة معنوية عظيمة، وحفزتهم للاندفاع إلى ما وراء تخومهم ومواجهة الفرس والروم فى أعقار دورهما، وهذه القوة المعنوية هى أسس الظفر فى كل نضال، فصاحبها لا يعرف الهزيمة ولا يرضاها ويستهين بكل صعب، بل يستهين بالحياة نفسها فى سبيل الظفر بالغاية التى يريد بلوغها.

بهذه القوة اندفع العرب لقتال الفرس والروم، لا خبا فى الغزو وتهافتا على مغانمه، وإرضاء لهوى القتال الكمين فى طباعهم ـ كما يحاول المغرضون أن يصوروا هذا الاندفاع ـ وإنما جهادا فى سبيل الله، يدفعهم إليه الإيمان الصادق بالعقيدة السليمة، والقوة العاتية التى بثها فيهم الإسلام، فحببت إليهم الاستشهاد فى سبيل الله، وفى سبيل الدعوة إلى الحق الذى أوحاه إلى رسوله، فانطلقوا على رغبة وحنين إلى الجنة، وباستهانة نادرة بالحياة يتمثلون الآخرة بنعيمها وظلالها، وكأنما يرونها رأى العين ويطيرون إليها متغنين بما وعدوا من جنان تحت ظلال السيوف، وآخرة هى خير وأبقى، بأن الله اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيله فيَقْتُلون ويُقْتَلون، وبأن الذين يُقتَلون فى سبيل الله ليسوا أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم.

انطلقوا وملء ذاكرتهم تجارب هائلة، كان النصر فيها حليفهم فى مواطن كثيرة، أظهرهم الله فيها على أعدائه وأعدائهم، حتى خلص لهم وجه بلاد العرب، وأنالهم رقاب المرتدين، فأعادوا الأمر إلى نصابه فى بأس وحزم. وهاهم يجدون ريح الجنة، ويتمنون الشهادة فى سبيلها، ويترقبون اللحظة التى ينطلقون فيها نحو تخومهم، ليحملوا إلى العرب فى الأطراف وإلى من وراءهم من العالمين هذه الدعوة التى لا يستطيعون الانطواء عليها وحدهم، وهى تتضوأ بدفئها ونورها فى مواطن اعتقادهم، وقد أدركوا أنهم ورثة هذا النبى الذى بعث فيهم إلى الناس كافة، يهدونهم بهديه إلى ما اهتدوا إليه، وما ارتضوا لأنفسهم، فعليهم وحدهم يقع هذا العبء، وما عليهم ـ لكى يقوموا برسالتهم ـ إلا أن يقطعوا هذه الطرق التى طالما قطعوها من قبل تُجّارا يحملون

عروض الدنيا، لكنهم فى هذه المرة تجار لتجارة لن تبور، يحملون دين الله الحق وهدى رسوله، ويبشرون بما هو خير وأبقى، متسلحين بما أفاءه عليهم الإسلام من قوة وما يستشعرونه من خطر الرسالة التى يحملونها، متذرعين بما وعدهم الله من النصر، مهطعين إلى دعائه:

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ (١٩٠) ﴾ [البقرة].

﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ (١٩١) ﴾ [البقرة].

﴿ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) ﴾ [البقرة].

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ (١٩٣) ﴾ [البقرة].

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) ﴾ [النساء].

﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴾ [النساء].

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ (١٠٠) ﴾ [النساء].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) ﴾ [النساء].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) ﴾ [الأنفال].

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ (٦٠) ﴾ [الأنفال].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا

أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير (٣٩) إلا تنصروه فقد نصره الله ﴾ [التوبة].

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله (١١١) ﴾ [التوبة].

﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز (٤٠) ﴾ [الحج].

﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم (١٠) تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم (١١) ﴾ [الصف].

﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤) ﴾ [الصف].

﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون (٢٠) يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم (٢١) خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم (٢٢) ﴾ [التوبة].

﴿ يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون (٦٥) ﴾ [الأنفال].

وقد صدع ﷺ بما أمر به، فحرض على القتال، وزين الجهاد للمسلمين وحثهم عليه، حتى ليجعله فى تقديرهم ذروة الإسلام وأفضل الأعمال طرا عند الله بعد الإيمان به وبرسوله، فيعلن أنه أمر أن يقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك فقد اعتصموا وعصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله. وأن الجهاد فى سبيل الله باب من أبواب الجنة، ينجى الله تبارك وتعالى به من الهم والغم. وتمنى أن يغزو فى سبيله فيقتل، ثم يغزو فيقتل. وحكى عن ربه عز وجل: «أيما عبد من عبادى

خرج مجاهدا فى سبيله ابتغاء لمرضاتى ضمنت له إن أرجعته أرجعه بما أصاب من أجر أو غنيمة، وإن قبضته غفرت له». وصور ﷺ ما أعد للمجاهد من أجر فى الآخرة؛ فجسده محرم على النار، إذ لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى أنف مسلم. وما اغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتمسه النار. وكل ميت يختم على عمله إلا المرابط فى سبيل الله، فإنه ينمى عمله إلى يوم القيامة، فيؤمن من فتنة القبر. ومن مات مرابطا فى سبيل الله أمن الفزع الأكبر، وغدى عليه برزقه وريح الجنة. وطوبى لعبد آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله أشعث رأسه، مغبرة قدماه، يطير على متن فرسه كلما سمع هيعة أو فزعة يبتغى القتل.ورباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوطه من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها. والقوة الرمى، فمن تركه بعد ما علمه رغبة عنه فإنه نعمة كفرها. والخيل أجر وستر، ومعقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة.

بهذا كان ﷺ يحضهم على الجهاد، ويدفعهم إلى الاستعداد له، ويدعوهم إلى استكمال ثقافتهم العسكرية، ويشهد بنفسه ملاعبتهم لسيوفهم ورماحهم وضروب فروسيتهم وعَدْوهم، ويعجب بهم ويبدى استحسانه لما يرى من صنيعهم، ويزين لهم تعليم أولادهم ركوب الخيل والعدو وحيل الحرب وأفانين القتال والرماية والسباحة، ويرغبهم فى التجمل بخلائق الفرسان، فى النجدة والشجاعة ونبذ الجبن والخنوثة.

فأثمرت هذه التعاليم ثمرتها، فكان الجهاد بلورة نورانية تجذب وجدان المسلمين، وتلهب مشاعرهم، وصورة متألقة فى ضميرهم، تبدو الدنيا فيها مجازا للآخرة، والآخرة ثوابا للدنيا، فيعيش من عاش فيها سعيدا، ويموت من مات فيها شهيدا. ومن هنا حرصوا على الموت أكثر من حرصهم على الحياة، لا يجزعون أمامه، وهم مؤمنون بأن كل شىء قد قدر تقديرا، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف]، وأن حينهم سوف يواتيهم فى ميقات معلوم ولو كانوا فى بروج مشيدة. فما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسهم إلا فى كتاب، ولو كانوا فى بيوتهم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم، ولن يصيبهم بعد هذا إلا

ما كتب لهم، وأن ما يمكن أن يصيبهم لا يخرج عن أمرين: أمرّهما حلو، فإما الشهادة المؤدية إلى الجنة، وإما النصر الذى هو حق لهم ما أخلصوا فى قتال عدوهم، وما نصروا الله، فإن ينصروه ينصرهم، والنصر من عنده يؤتيه من يشاء، وإن ينصرهم فلا غالب لهم.

انطلق المسلمون عبر حدودهم وكل هذه المعانى تعتمل فى نفوسهم، وتنطلق على ألسنتهم، كما انطلقت على لسان المغيرة بن شعبة فى مسامع رستم وحاشيته «يدخل من قتل منا الجنة، ومن قتل منكم النار، ويظهر من بقى منا على من بقى منكم»[1].

وينطلق هذا المعنى فى كتاب خالد بن الوليد إلى رؤساء فارس «أسلموا تسلموا، وإلا فاعتقدوا منى الجزية، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر»[2]. كما ينطلق على لسان ربعى بن عامر، رسول سعد بن أبى وقاص إلى رستم فى القادسية، وقد دخل على القائد العظيم فى ثياب صفيقة، فوق فرس قصيرة، ولا يزال راكبها حتى يدوس بها على طرف البساط، ثم يترجل فيربطها ببعض الوسائد، ويقبل وعليه سلاحه ودرعه، وبيضته فوق رأسه، ليرد على من صاح به أن يلقى سلاحه: «إنما جئتكم حين دعوتمونى، فإن تركتمونى هكذا وإلا رجعت» ثم يتوكأ على رمحه فوق النمارق ليقول مدويا مجيبا من سأله عن سبب مجىء المسلمين «ماجاء بكم؟»، «الله . . . ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[3].

وقد تداول هذه المعانى أولئك المجاهدون الشعراء الذين اجتذبهم ألق الجهاد، فصم آذانهم عن كل دعاء إلا دعوة الله، فتركوا من ورائهم أهليهم وذويهم يناشدونهم البقاء إلى جانبهم، حرصا عليهم ورغبة فى سلامتهم، ولكن كيف لهم أن يمنعوا أنفسهم طلبتها. وكيف لهم أن يقعدوا عن واجب أوجبه الله ودعا إليه، وليسوا ممن

(١) الطبرى أوربا / جـ٥ / ص٢٢٧٩.
(٢) الطبرى أوربا / جـ٤ / ص٢٠١٩.
(٣) الطبرى أوربا / جـ٥ / ص٢٢٧٠.

يصرح لهم بالقعود . . . فهذه امرأة النابغة الجعدى تناشده الله أن يبقى، ولكنه يجيبها بأنه لا عذر له فى القعود.

باتت تذكرنى بالله قاعدة ... والدمع ينهل من شأنيهما سبلا
يا بنت عمى كتاب الله أخرجنى ... كرها وهل أمنعن الله ما بذلا
فإن رجعت فرب الناس أرجعنى ... وإن لحقت بربى فابتغى بدلا
ما كنت أعرج أو أعمى فيعذرنى ... أو ضارعا من ضنى لم يستطع حولا[1].

وكذلك كان الشبان من المسلمين فى مقتبل العمر لا يستطيعون مقاومة اللهفة إلى الجهاد، فيخلفون وراءهم آباء ضعافا، يخافون عليهم ويبكونهم، ولكنهم لا يحفلون بهم ولا بدموعهم. كما فعل شيبان بن المخبل السعدى مع أبيه؛ إذ خرج مع سعد بن أبى وقاص إلى غزو الفرس، وكان أبوه قد أسن وضعف، فما برح يناديه، ويتحسر على وحدته بعده، وجدا عليه وإشفاقا وهلعا، يقول:

أيهلكنى شيبان فى كل ليلة ... لقلبى من خوف الفراق وجيب
ويخبرنى شيبان أن لم يعقنى ... تعق إذا فارقتنى وتحوب
فإن يَكُ غُصْنِى أصبح اليوم باليا ... وغُصنُك من ماء الشباب رطيب
فإن حنت ظهرى خطوب تتابعت ... فمشيى ضعيف فى الرجال دبيب
إذا قال صحبى يا ربيع ألا ترى ... أرى الشخص كالشخصين وهو قريب
أشيبان ما يدريك أن كل ليلة ... غبقتك فيها والغبوق حبيب[2].

وهذا كلاب بن أمية بن الأسكر يسأل طلحة والزبير عن أفضل الأعمال، فيخبرانه أنه الجهاد فى سبيل الله، فيقصد عمر رضى الله عنه يسأله الجهاد، فيبعث به إلى العراق، ولكن أباه يناشده الأبوة والعجز أن يبقى، فيوليه ظهره، ويتوجه إلى العراق مخلفا أباه ينتحب ويقول:

---

(١) الشعر والشعراء جـ١ / ص٢٥١ / ٢٥٢.
(٢) الإصابة / جـ٣ / ص٢٢٧، الأغانى (ساسى) جـ ١٢ / ص٣٨.

لمن شيخان قد نشدا كلابا ... كتاب الله إن حفظ الكتابا
أناديه فولّانى قفاه ... فلا وأبى كلاب ما أصابا
إذا سجعت حمامة بطن وج ... على بيضاتها دعوا كلابا
أتاه مهاجران تكنّفاه ... عباد الله قد عقا وخابا
تركتَ أباك مرعشةً يداه ... وأمك ما تسيغ لها شرابا
فإنك والتماس الأجر بعدى ... كباغى الماءَ يتّبع السرابا[1].

ولكن كلابا لا يحفل به، فيذهب أمية إلى المسجد يبكى لعمر ويستعطفه أن يرد عليه ابنه، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق. والعقوق ـ فى تصوره ـ معصية كبرى على هذه الصورة، ويعلن: أنه سيشكو عمر إلى الله إذا لم يرد كلابا:

أعاذل قد عذلت بغير قدرى ... ولا تدرين عاذل ما ألاقى
فإما كنت عاذلتى فردى ... كلابا إذ توجه للعراق
فتى الفتيان فى عسر ويسر ... شديد الركن فى يوم التلاقى
فلا وأبيك ما باليت وجدى ... ولا شغفى عليك ولا اشتياقى
وإيقادى عليك إذا شتونا ... وضحكك تحت نحرى واعتناقى
سأستأدى على الفاروق ربا ... له عمد الحجيج إلى بساق
وأدعو الله محتبسا عليه ... ببطن الأخشبين إلى دفاق
إنِ الفاروق لم يردد كلابا ... على شيخين هامهما زواق[2].

وهكذا كان داعى الله أشد أثرا وأقوى فعلا فى نفوس المجاهدين من المسلمين، طغى على كل دعوة إنسانية، سواء أكانت من أب عاجز، أم من زوجة بائسة.

---

(١) الإصابة/ جـ١ / ص٦٥، أسد الغابة/ جـ١/ ص١١٦، الأغانى (ساسى) جـ١٨/ ص١٥٧، ابن سلام ص ١٦٠.

(٢) الإصابة/ جـ١ / ص٦٦، ياقوت / جـ١/ ص٦٠٩، الأغانى (ساسى) جـ/١٨ ص١٥٧، ابن سلام ص ١٦٠.

وعلام يحفلون بهذه الدعوات وهذه الدموع ما دام الله تعالى قد دعاهم؛ فهذا الحتات يجيب أباه لما جزع عليه وبكاه واستعطفه ليرجع:

ألا من مبلغ عنى ذريحا ... فإن الله بعدك قد دعانى
فإن تسأل فإنى مستقيد ... وإن الخيل قد عرفت مكانى[1].

وهكذا كانوا يتسابقون إلى الجهاد، لا يعبئون بأهليهم الذين يناشدونهم عجزهم وضعفهم، فيضربون بكل هذا عرض الحائط، إيثارا للآخرة، وحبا فى الظفر، ورغبة فى المثوبة. فهذا - أبو خراش الهذلى - يقدم إلى المدينة فيجلس بين يدى عمر؛ ليشكو إليه شوقه إلى ابنه خراش الذى أوغل مع جيوش المسلمين فى أرض الشام وتركه وحيدا، بعد أن انقرض أهله ومحبوه، وقتل إخوته، ولم يبق له ناصر أو معين، ثم ينشده:

ألا من مبلغ عنى خراشا ... وقد يأتيك بالنبأ البعيد
وقد يأتيك بالأخبار من لا ... تجهز بالحذاء ولا تزيد
تناديه ليغبقه كليب ... ولا يأتى لقد سفه الوليد
فرد إناءه لا شىء فيه ... كأن دموع عينيه الفريد
وأصبح دون غابقة وأمسى ... جبال من حرار الشأم سود
ألا فاعلم خراش بأن خير الـ ... مهاجر بعد هجرته زهيد
رأيتك وابتغاء البر دونى ... كمخضوب اللبان ولا يصيد[2].

وأكثر من ذلك نجد كثيرا من المؤمنين والمؤمنات يدفعون بأبنائهم إلى الجهاد دفعا، إذ ليسوا بحاجة إليهم، وقد انتفت حالات العجز والضعف التى دفعت بالخلفاء إلى رد الأبناء على آبائهم الضعاف، ومنعهم من الجهاد إلا بموافقتهم. فنجد الخنساء الشاعرة المعروفة تدفع ببنيها الأربعة إلى الجهاد ليلة القادسية، وقد أخذت توصيهم قائلة: «إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، ووالله الذى لا إله إلا هو... إنكم لبنو رجل واحد وامرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا

(١) الأصابة/ جـ٢ ص١٨١.
(٢) ديوان الهذليين/ ج ٢ ص١٧٠، الأغانى (ساسى) / جـ٢ ص ٤٧.

غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين، وأن الدار الباقية خير من الدار الفانية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ [آل عمران]، فإذا أصبحتم فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب شمرت عن ساقها واضطرمت لظى على سياقها وجللت على أوراقها، فيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام حميسها، تظفروا بالغُنْم والكرامة فى دار الخلد والمقامة»[1]. فإذا بنيها يباكرون مراكزهم إلى الجلاد، وهم يتغنون بهذه النصيحة شعرا ملتهبا بالإيمان، يكشف عن تمكن روح الجهاد فى نفوسهم وفعله بهم، يقول أولهم:

يا إخوتى إن العجوز الناصحة ... قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
مقالة ذات بيان واضحة ... فباكروا الحرب الضروس الكالحة
وإنما تلقون عند الصائحة ... وأنتم بين حياة صالحة

أو ميتة تورث غُنْمًا رابحة

ويتقدم فيقتل، ويحمل الثانى وهو يرتجز:

إن العجوز ذات حزم وجلد ... والنظر الأوفق والرأى السدد
قد أمرتنا بالسداد والرشد ... نصيحة منها وبرا بالولد
فباكروا الحرب حماة فى العدد ... إما لفوز بارد على الكبد
أو ميتة تورثكم عز الأبد ... فى جنة الفردوس والعيش الرغد

ويقاتل حتى يستشهد، فيحمل الثالث وهو ينشد:

والله لا نعصى العجوز حرفا ... قد أمرتنا حربا وعطفا
نصحا وبرا صادقا ولطفا ... فبادروا الحرب الضروس زحفا
حتى تلفوا آل كسرى لفا ... أو يكشفوكم عن حماكم كشفا
إنا نرى التقصير منكم ضعفا ... والقتل فيكم نجدة وزلفى

(١) الاستيعاب/ جـ٢: ص٧٤٥.

ويظل يجالد الفرس حتى يصرع، فيحمل الرابع منشدا:

لست لخنساء ولا للأخرم ... ولا لعمرو ذى السناء الأقدم
إن لم أرد فى الجيش جيش الأعجم ... ماض على الحول خضم خضرم
إما لفوز عاجل ومغنم ... أو لوفاة فى السبيل الأكرم[1].

ويخر صريعا فيلحق بإخوته إلى الرفيق الأعلى، وحين يبلغ الخبر إلى أمهم تلك التى جعلت من أساها على أخيها صخر مناحة أليمة فى تاريخ الأدب العربى ـ نجدها لا تهتز له إلا فخرا فتقول: «الحمد لله الذى شرفنى باستشهادهم».

وهكذا نرى هذا الدافع العقدى الجبار يدفع بالأم إلى أن تقود بنيها جميعا بيدها وبلسانها إلى الجهاد وتعدهم له، ويدفع بالأبناء إلى أن يعصوا الأبوة فى سبيل الجهاد ولا يحفلوا بشىء، ويدفع الرجال إلى أن يتركوا وراءهم كل ما يتشبث به، وكل من يتمسك ببقائهم، إنها قوة دافعة لا تقاوم، يغذيها الإيمان العميق، والإحساس الأصيل بضرورة الانطلاق بالرسالة إلى الناس كافة، ليتسنى لهم أن يخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، انطلقوا جميعا يجيبون داعى الله، حتى غدت ديارهم خلاء موحشة، ليس فيها غير الذئاب، كما يصور ذلك أسامة بن الحارث الهذلى فى قوله:

فمـوشكة أرضنا أن تعود ... خلاف الأنيس وحوشا يبابا
ولم يدعوا بين عرض الوتـ ... ـير حتى المناقب إلا الذئابا[2].

(١) الاستيعاب جـ٢ ص ٧٤٥/٧٤٦.
(٢) ديوان الهذليين جـ٢ ص١٩٩.

٢ـ فتوح الشرق

يجدر بنا أن نشير هنا إلى خلاف المؤرخين على الزمن الذى حدثت فيه فتوحات الشرق ووقائعها خلافا يصبح معه تتبع الحوادث فى تسلسلها التاريخى مغامرة لا تستند إلى أساس يمكن الاعتماد عليه فى شيء من الدقة. فالطبرى مثلا يرى أن حروب الردة وقعت فى السنة الحادية عشرة للهجرة، وأن فتح العراق تم فى السنة الثانية عشرة، وأن فتح الشام تم فى السنة الثالثة عشرة.

ويكاد المرء يظن حينما يطالع هذا التعاقب أن فتح العراق لم يبدأ إلا بعد الفراغ من حروب الردة، وأن فتح الشام لم يبدأ إلا بعد أن استقر الأمر للمسلمين فى العراق، لكن شيئا من التدقيق فى مراجعة الحوادث ووقوعها لا يلبث أن يحمل على الريبة فى مثل هذا الظن، ففتح العراق بدأ وحروب الردة لا تزال قائمة. وفتح الشام بدأ فى أعقاب حروب الردة، وجيوش خالد بن الوليد لا تزال تعالج إقرار السكينة فى أرجاء العراق، وتتوقع غزوات جديدة.

وقد رأينا أن التأريخ للفتوح الإسلامية يستتبع النظر العاجل فى حروب الردة، التى أسهمت فى توجيه أنظار المسلمين إلى الامتداد خارج شبه الجزيرة، فضلا عن تأكيدها لوحدة الأمة الإسلامية، وصهرها فى بوتقة الصراع الدامى، كتمهيد لما ينتظرها بعد من تحمل لرسالتها الجليلة.

فلم يكد أبو بكر رضى الله عنه يقضى على عبس وذبيان وبنى بكر ومن انضم إليهم فى الأبرق حتى انحاز فلُّهم إلى طليحة الأسدى ببزاخة، ورجع الصديق إلى المدينة وهو يفكر فى الوسيلة التى يقضى بها على المرتدين. وكان جيش أسامة قد وصل إلى المدينة وقضى أياما جم فيها، فخرج الصديق إلى ذى القصة حيث وزع جنده لمحاربة المرتدين أحد عشر لواء، جعل لكل منها أميرا، وأمره أن يستنفر من يمر به من المسلمين أولى القوة، وأن يسير لقتال المرتدين. وقد وزع الألوية توزيعا مناسبا فى عددها وأمرائها، مع قوة القبائل التى وجهت إليها، ومبلغ إلحاحها فى الردة.

فتوجه خالد بن الوليد إلى طليحة بن خويلد فى بنى أسد، فإذا فرغ منه سار إلى مالك بن نويرة، زعيم بنى تميم فى البطاح. وبنو أسد وبنو تميم كانوا أقرب القبائل المرتدة

إلى المدينة، ولهذا بدأ بهم المسلمون، ووجهوا إليهم خالدا. وتوجه عكرمة بن أبى جهل على اللواء الثانى إلى مسيلمة فى بنى حنيفة باليمامة. وشرحبيل بن حسنة على اللواء الثالث، ليعين عكرمة على مسيلمة، فإذا فرغا منه لحق شرحبيل بقضاعة، مددا لعمرو بن العاص وقد استعصت اليمامة على عكرمة، كما استعصت على شرحبيل. ثم كان النصر لخالد بعد أن قتل مسيلمة فى عقرباء.

وعقد للمهاجر بن أمية المخزومى اللواء الرابع لقتال الأسود العنسى باليمن وعمرو ابن معد يكرب الزبيدى، وقيس بن مكشوح المرادى ورجالهم، فإذا فرغ منهم قصد كندة وحضرموت لقتال الأشعث بن قيس والمرتدين معه. وعقد اللواء الخامس لسويد بن مقرن الأوسى، ليتوجه إلى تهامة باليمن. وعقد اللواء السادس للعلاء الحضرمى، لقتال الحطم ابن ضبيعة أخى بنى قيس بن ثعلبة، والمرتدين معه بالبحرين. ووجه حذيفة بن محصن الغلفانى من حمير على رأس اللواء السابع، لقتال ذى التاج لقيط بن مالك الأزدى المتنبى فى عمان. وكانت وجهة اللواء الثامن إلى مهرة، وعليه عرفجة بن هرثمة. كما توجهت ألوية ثلاثة إلى الشمال، على أحدها: عمرو بن العاص لقتال قضاعة، وعلى الثاني: معن ابن حاجز السلمى، لقتال بنى سليم ومن معهم من هوازن. وعلى الثالث: خالد بن سعيد بن العاص لاستبراء مشارف الشام، واحتفظ الخليفة بقوة لحماية المدينة، وكانت دون لواء من هذه الألوية عددا.

وكانت مهمة ألوية الجنوب صعبة، إذ إن موقع هذه المناطق الجغرافى جعل لبلاط كسرى فى هذه الأنحاء من الصلة بها، بل من السلطان عليها ما لم يكن له بغيرها من بلاد العرب، ولسنا نستطيع أن نتجاهل أثر هذا السلطان فى تحريك البواعث التى أدت إلى انتقاض العرب وردتهم. فقد رأى عاهل الفرس فيمن رأوا فى رسالة محمد إليه وإلى غيره من الملوك والأمراء ليدينوا بالإسلام ما أدى به إلى أن يعمل على إيقاظ نار الفتنة فى بلاد ليس بها من أسباب الوحدة غير الدين الجديد، الذى يجمع كلمتها، ويضاعف قوتها، ولا شيء كالفتنة يضعضع العزائم، ويفت فى أعضاد الأمم[1]. ولقد كان سلطان فارس على اليمن ممتدا إلى أن دخل عاملها لكسرى فى الإسلام، وصار عاملا للنبى ﷺ عليها،

(١) الصديق/ هيكل/ ص٩٣.

ولكن سلطان فارس كان أكثر وضوحا فى البحرين وعمان، حيث كان من أبناء فارس عدد كبير استوطنهما، وعلت كلمته فيهما، لما كانت تمدهم به فارس من نفوذها وقواتها كلما خشيت ثورة العرب الخلص بهم، أو محاولتهم القضاء على سلطانها فى ربوعهم. فليس عجبا إذن أن تكون هذه البلاد آخر من دان بالإسلام على عهد الرسول ﷺ فى عام الوفود، وأن تكون أول من ارتد حين قبض، ثم تكون آخر من يعود إلى الإسلام بعد حروب طاحنة، تختم حروب الردة، وتعيد إلى البلاد العربية وحدتها الدينية، وتقيم فيها الوحدة السياسية. كانت الثورات فى الجنوب إذن أعنف مظاهر الانتقاض على الدين الجديد فى بلاد العرب بعد وفاة النبى ﷺ. لكن اليمامة وما حاذى الخليج الفارسى من القبائل كان يتلظى ببذور الثورة فى هذا العهد، وكان المسلمون على حذر ليظل سلطانهم قائما وكلمتهم مسموعة، فلا عجب إذن أن يكون ذلك أمر حواضر وبواد تبعد عن منزل الوحى بمكة والمدينة، تتصل بالفرس وتبادلهم التجارة وتقر لهم بتفوق الحضارة، بل لا عجب أن تكون للفرس يد خفية فى تحريك هذه الحواضر والبوادى، لتنقض على الدين الجديد والسلطان الناشئ، ولكن المسلمين استطاعوا أن يعيدوا الأمر إلى نصابه، وأن يقضوا ــ فى صرامة وحزم ــ على كل بواعث الفتنة قضاء مبرما.

عادت الألوية الظافرة إلى المدينة، إلا أن بعضها انساح فى الأرض يؤمّن تخوم شبه الجزيرة وأطرافها، فأقام العلاء الحضرمى فى البحرين بعد أن أرسل بانتصاره إلى الصديق، لا يخشى شيئا إلا غارة قبائل البادية التى ألفت العزو والسلب، ودسائس الفرس الذين تقلص نفوذهم فى جنوب الجزيرة. على أنه كان مطمئنا بعض الشيء إذ انضم إليه قبل ذهابه إلى دارين من قبائل البحرين ومن الأبناء من كفوه مئونة ما يخشى. وكان عتيبة ابن النهاس والمثنى بن حارثة الشيبانى على رأس من انضم إليه، وقد قعدوا بكل طريق للمنهزمين، وللذين يعيثون فى الأرض فسادا. وتابع المثنى المسير على شاطئ الخليج الفارسى، يقاوم دسائس الفرس، ويقضى على أنصارهم من القبائل والأبناء، حتى بلغ مصب الفرات، فكان لبلوغه هذا المبلغ ولاتصاله بأرض العراق ولدعوته إلى الإسلام هناك أثر لا نبالغ إذا زعمنا أنه كان مقدمة لفتح العراق.

وقد يبدو الأمر متناقضا إذا ما رأينا إجماع المؤرخين المحققين على أن فتح العراق وفارس وما وراءهما لم يدر بخلد المسلمين فى هذه الفترة ابتداء، وإنما دار هذا الخاطر بنفس أبى بكر حينما كان النصر يحالف ألويته فى حروب الردة، فمذ قضى خالد بن الوليد على مسيلمة باليمامة، ومذ نشر المهاجر بن أمية وعكرمة بن أبى جهل لواء الإسلام فى أرجاء اليمن وما جاورها، أيقن أبو بكر أن الأمر صائر إلى ما يرضى المسلمين، من الوحدة الفكرية والسياسية لشبه الجزيرة العربية، ولكنه كان يخشى أن يستنيم المسلمون لهذا النصر، وينسوا ما تنطوى عليه صدور العرب من حفيظة قد تضطرم فتضرم الثورة كرة أخرى، وربما يكون فى اتجاه أنظار هؤلاء العرب إلى ما وراء الحدود فى شبه الجزيرة ما يجعلهم ينسون حفائظهم وأحقادهم.

واتجه ذهن أبى بكر إلى اقتحام مشارف الشام وحرب قيصر، بعد ما كان من سياسة الرسول ﷺ نحو تأمين التخوم العربية بحملاته الشهيرة مما يصرف أذهان العرب عن ثاراتهم، ويجعل لهم من الفخار ما ينسيهم ضغنهم على المدينة وأهلها، ويمهد لانتشار كلمة الله فى الإمبراطورية الرومية، ولكن.. ألا يمكن أن تنقلب الآية فلا يحالف النصر ألوية المسلمين، فتتعرض شبه الجزيرة لما هو أكثر شرا من الثورة التى أخمدتها حروب الردة؟ حقا لقد قامت بين إمبراطورية الروم وفارس حروب استطالت على السنين، تداولوا فيها النصر والهزيمة، حتى انتهى الغلب فيها للروم، وقد استنفدت هذه الحروب من قوة الدولتين ما يحتاج جهدا ضخما وزمنا طويلا لتعويضه، ولكن بريق النصر الذى انتهى إليهم فى هذه الحروب لا يزال يبهر أنظار العرب ويصدهم عن حربهم، ويجعل التفكير فيها مغامرة غير مضمونة العواقب.

وعلى الرغم مما لاقى العرب من دسائس الفرس فى فتنة الردة فلم يدر بخاطر أبى بكر أن يحارب «فارس»، فضلا عن استشراء نفوذها فى اليمن، فإن الحجاز لا يتصل بفارس. والبلاد العربية التى تتاخم الفرس هى البلاد التى فشت فيها الردة، ولهذا لا يمكن الاعتماد عليها، أو الركون إلى أهلها فى غزو دولة لا يزال لها سلطانها عليهم.

ومن هذا يتضح ضعف تلك الآراء التى تجعل من الصراع الشهير بين الدولتين الفارسية والرومية حافزا للعرب على الفتوح. فالحقيقة السافرة أن هزيمة الدولة الفارسية على

أيدى الروم لم تقض عليها، ولم تؤد بها إلى الانهيار، ولم تدفع العرب إلى الانقضاض عليها وإدخالها مثخنة بالجراح إلى حظيرة الإسلام كما يزعم البعض[1]، فقد كان لها بعد كل هذا جيوشها الجرارة، ونظامها وسلطانها. فإن كسرى أنوشروان الذى ولد لأول عهد النبى ﷺ كان قد جعل هدفه تجديد شباب الدولة الساسانية، فمضى فى سلسلة من الإصلاحات، تناولت شتى النظم الإدارية والمالية والعسكرية. ورد إلى الدولة الساسانية شبابها، فاستطاعت أن تنتزع من الإمبراطورية الرومية آسيا الصغرى وأرمينيا والشام، ونجحت فى أن تلطم العالم المسيحى لطمة قاسية بإدخالها بيت المقدس فى حوزة الوثنيين، واستيلائها على صليب الصلبوت، كما استولت على مصر، وبلغ الأمر بها أن هددت أبواب القسطنطينية ذاتها[2].

وحتى لو فرضنا أن الدولة الفارسية انهارت على يدى «هرقل» ألم يكن أقرب إلى المنطق والعقل أن يلتهمها الروم أنفسهم، الذين طرقوا أبواب عاصمتها «المدائن» بعد هزيمتها المنكرة فى نينوى، وإرغامها على صلح مشين فى ٦٢٨م بطريقة أسهل من استيلاء العرب عليها، إذا ما قارنا بين حالة الروم وحالة العرب وقتذاك.

لا ريب فى أن أبا بكر كان يقدر قوة الفرس ومبلغ سلطانهم على الجنوب وأثره فى فتنة العرب، وأنه ليفكر ويقدر فى موقف المسلمين من هاتين القوتين دون أن يجرؤ على التفكير فى حربهما، إذ تترامى إليه الأنباء بأن المثنى بن حارثة الشيبانى قد سار بقواته شمالا فى البحرين حتى وضع يده على القطيف وهجر، وحتى بلغ مصب دجلة والفرات، وأنه قضى فى مسيرته على الفرس وعمالهم، ممن عاونوا المرتدين بالبحرين، وأنه تابع مسيره مساحلا الخليج الفارسى إلى الشمال، حتى نزل فى قبائل العرب الذين يقيمون بدلتا النهرين، فتحدث إليهم وتعاهد معهم.

وفكر أبو بكر فيما جاءه من أنباء، فإذا به يفكر من ثم فى دفع المسلمين إلى خارج شبه الجزيرة، حتى يصرفهم عن ثاراتهم الأولى، فربما ينجح المثنى فى التوغل إلى العراق، فيفتح للمسلمين المتعطشين إلى الجهاد أبوابه. وبدأت عناصر نجاح هذا التدبير تتداعى إلى

(١) انظر الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم/ العدوى ص٤٢.
(٢) نفس المرجع ص٣٢.

خاطره، وقبائل العرب فى العراق من بنى لخم وتغلب وإياد والنمر وبنى شيبان تهوى نفوسهم إلى منابتهم فى شبه الجزيرة، ولم تبعد أنسابهم بعد عن أنسابها. وبرغم أن أكثر هذه القبائل قد نعم بالحضر وترفه إلا أنها ظلت شديدة التعلق بالبادية تسكن مشارفها، وهى فى هذا لا تستطيع مقاومة الوراثة البدوية المتغلغلة فى نفوسها، التى تأبى الاستقرار والركون إلى حياة الحضر الوادعة، فسكنت على شفا الصحراء، بين البادية والحضر، لتجد فى الحضر رزقها، وفى البادية ما يستهويها من الحرية والسحر والجمال.

وتردد فيما جاءت به أنباء المثنى أن قبائل العرب التى استقرت بدلتا النهرين، الغنية بالزروع والفاكهة والطير والحيوان، مالت إلى الحضر والإقامة فعمل أبناؤها فى زراعة الأرض، وأن دهاقين الفرس يستولون على غلاتها، فلا ينال أولئك العرب منها إلا القليل الذى يجود به الدهاقين عليهم، مما يجعلهم أدنى إلى الاستجابة لكل دعوة عربية. فمعاملة الدهاقين تعدهم للثورة بهم، وتمهد للمسلمين أن يستخدموهم أدوات لبث دعوتهم، وتأمين شبه الجزيرة من دسائس الفرس وعدوانهم.

هذا فضلا عن أن بطونا من ربيعة ومضر استقرت فى سواد العراق والجزيرة، فصارت لهم هناك ديار ومراع، ونزلوا على خفارة فارس[1]. وكذلك استقرت قبيلة تنوخ غربى نهر الفرات من الحدود الفارسية، حتى أنشأ لهم سابور الأول ملك الفرس إمارة الحيرة عام ٢٤٠م، وأمر عليها عمرو بن عدى، لتكون هذه الإمارة درعا يكفى دولة فارس من وراءها من الروم والأعراب، ولكن هذه العلاقة الوطيدة بين العرب والفرس لم تمنع القبائل العربية من الإحساس بعصبيتها وتوحدها ضد الفرس فى يوم ذى قار[2].

فالعراق إذن لم يكن يوما ما غريبا عن عرب الجزيرة، بل كان دائما امتدادا لمنازلهم، ودار هجرة لهم، يجتذبهم إليه بخصبه واستقرار الحياة فيه، ويجوسون خلاله فى معاناة التجارة وخفارتها، ويجدون فى رحيلهم إلى الشرق والغرب فرصة مواتية للاختلاط بسكان هذه المناطق، اختلاطا يتعدى الناحية الاقتصادية إلى التأثير والتأثر، وتعميق المعرفة بأحوالهم وبظروف حياتهم. وكان فى أسواق العرب مجال لاختلاط التجار العرب

(١) المسالك والممالك، ص١٨.

(٢) العقد الفريد، ج٢، ص٨١.

والفرس، وبخاصة فى دومة الجندل على أطراف العراق وشبه الجزيرة، وعلى امتداد خط القوافل بمحاذاة الخليج الفارسي. وكان التجار الأعاجم يقدمون إلى مكة ـ قبل أن يلى هاشم شئون التجارة ـ فيشترى منهم العرب، ويتبايعون فيما بينهم ويبيعون من حولهم. ثم أخذ العرب بعد ذلك يقتحمون العراق وفارس بتجارتهم، إذ اختص نوفل بن هاشم بالتجارة مع فارس وعقد معها حلفا ومعاهدة تجارية فيما يقال(١).

وليس أدل على قوة هذه الصلات من أن سكان الحيرة والأنبار كانوا يكتبون اللغة العربية، فقد وجد خالد بن الوليد بعد فتح الأنبار قوما يكتبون بها فسألهم ممن تعلمتم؟ فقالوا: من إياد، وأنشدوه:

قومى إياد لو أنهم أمم   أولو أقاموا فتهزل النعم

قوم لهم باحة العراق إذا   ساروا جميعا والخط والقلم(٢)

وكذلك وجد قوم من العرب كانوا يجيدون اللغة الفارسية إجادة مكنتهم من الاشتغال لدى ملوك الفرس بالكتابة والترجمة، من مثل عدى بن زيد التميمى، الذى كان يكتب لكسرى أنوشروان ويترجم له. وخلفه فى عمله ابنه زيد(٣).

وكانت وفادات العرب على ملوك الفرس لا تنقطع، وفى كل مرة كان العرب يعودون وقد حملوا معهم إلى موطنهم ألوانا من المعرفة والحضارة، كما فعل الحارث بن كلدة من وفوده على كسرى أنوشروان، وابنه النضر بن الحارث الذى تعلم فى فارس صناعة الألحان والطب، وكان يجلس ليتحدى الرسول ﷺ بأحاديثه عن ملوك فارس(٤). ومثل: عبدالله بن جدعان الذى وفد على كسرى فاستطاب من أطعمة فارس الفالوذج، فابتاع غلاما أعجميا يصنعه له(٥).

---

(١) حياة محمد، هيكل، ص٩٧.

(٢) الطبرى ١/٤/٢٠٦١.

(٣) مروج الذهب، ج٢، ص٢٥، ابن خلدون ج٢، ص٢٦٦.

(٤) السيرة (الحلبى)، ج١ ص٢٢١.

(٥) الأغانى ، دار الكتب، ج٨ ص٢٢٩.

ولا يزال التاريخ يحفظ وفادات الشعراء العرب على أمراء الحيرة العرب، التى استمرت طوال مدة حكمهم. فقد وفد عليهم طرفة بن العبد، والحارث بن حلزة، وعمرو بن كلثوم، والنابغة الذبيانى، إذ كان هؤلاء الأمراء يعنون باللغة والأدب، ويحبون الشعر والشعراء، ويهتمون بجمع الأشعار وتسجيلها وحفظها فى قصورهم[1].

هذا، وقد شاع فى الأدب العربى، وفى الحياة العقلية للعرب بعامة كثير من آثار العراق وفارس سقطت إلى العرب عن طريق الحيرة، كأحاديث جذيمة بن الأبرش، وأساطير الزباء، والخورنق والسدير، وسنمار وجزائه ويومى البؤس والنعيم اللذين استنهما النعمان بن المنذر[2]، هذا فضلا عما سقط إلى اللغة العربية من ألفاظ فارسية تجلت فى استخدام القرآن الكريم لها. هذه الصلات الوثيقة وما يعززها من قرابة الدم والجوار واللغة، وتلك العلاقات العقلية والحضارية والسياسية كانت كفيلة كلها بتوجيه أنظار المسلمين إلى العراق.

ولم يكن خافيا على أبى بكر ما وصلت إليه فارس صاحبة السلطان فى العراق من اضطرابات داخلية، ضربت بجرانها فى البلاط الفارسى، إذ يسعى كل أمير ليقتل الجالس على العرش ليأخذ مكانه، حتى ليدعى هذا العرش فى أربع سنوات تسعة من الأمراء كانوا يقتتلون عليه، يقتل بعضهم بعضا جهرا وغيلة. وقد بدأ هذا الاضطراب فى عهد كسرى أبرويز، الذى أرسل إليه الرسول ﷺ يدعوه إلى الإسلام، فكان جوابه أن كتب إلى عامله فى اليمن بأن يرسل إليه ذلك الراعى ليرى رأيه فيه. وحدث أن ثار عليه ابنه شيرويه فقتله واستلب العرش، ولكنه لم يتمتع بالملك طويلا فمات بعد قليل، تاركا العرش لابنه الصغير، الذى ثار به أحد القواد فقتله ونصب نفسه ملكا، واستهدف هذا الملك لثورة الأسرة المالكة به، فقتل بعد أربعين يوما من ثورته. حتى آل الأمر إلى بوران ابنة كسرى أبرويز وكان ذلك فى آخر حياة الرسول ﷺ.

لمح المسلمون فى كل هذه الظروف المواتية فرصتهم وبشير سعودهم، وقد ارتفعت معنوياتهم بإعادة الأمور إلى نصابها، والظفر بأهل الردة، وبفرض كلمة الحق بالسلطان

---

(١) العمدة، ج١ ، ص٦١.

(٢) فجر الإسلام، ص١٨.

الصارم، فراحوا يستشرفون مثل هذه الغاية التى أعدوا لها أنفسهم منذ أن كان فيهم رسول الله ﷺ، وهذه فرصة ثمينة، يجب أن تكون خطوة لما بعدها. ولئن حالف المسلمين النجاح فى هذه الخطوة لتكونن البشير لخطوات واسعة، فبقاع العراق الخصبة، التى أطلق عليها «جنة الأرض» تموج بكثرة غلالها ووفرة خيراتها وجمالها، وقد رأى أبو بكر صدق ما يذكره المثنى، ورأى أن من الواجب على المسلمين أن يقوموا بتأمين العرب من أهلها، فإذا استجاب هؤلاء العرب من بعد للدعوة الإسلامية، ولم يصرفهم الفرس عنها فذاك، وإلا قاتل المسلمون الفرس، ليكون المجال فسيحا أمام كلمة الحق التى ستنتصر لا محالة.

ويجمع أبو بكر ولاة أمر المسلمين وأولى الرأى منهم، للتداول فى عناصر نجاح تدبيره. وما إن ينتهى حتى يخطو الخطوة الأولى فى فتح العراق، فيأمر المثنى بن حارثة الشيبانى بأن يسير بمن معه من قومه لقتال أهل فارس. ولما بلغته أخبار انتصاراته بدلتا النهرين رأى أن يمده، فكتب إلى خالد بن الوليد فى المحرم من سنة ١٢هـ يأمره أن يجمع بقية جنده ويمضى إلى العراق فيدخله من أسفله، وأمر عياض بن غنم أن يسير إلى دومة الجندل ليخضع أهلها المرتدين، ثم يدخل العراق من أعلى، متجها شرقا إلى الحيرة، فإن بلغها قبل خالد فالأمر فيها له، وخالد فيها من قواده، وإن سبقه خالد إليها فالأمر والقيادة له، وعياض من قواده.. فإذا اجتمعتما فى الحيرة وقد فضضتما مسالح فارس وأمنتما أن يُؤتَى المسلمون من خلفهم فليكن أحدكما ردءا للمسلمين ولصاحبه بالحيرة، وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم ومستقر عزهم المدائن[1].

وهكذا تهدف الخطة التى وضعها أبو بكر مباشرة إلى الحيرة، ومنها إلى المدائن. وعلى هذا يمكننا أن نجعل الفتوح الشرقية مراحل ثلاث، أولاها: ما قبل الحيرة، والثانية: تشمل ما بين الحيرة والمدائن، والثالثة: تشمل ما بعد المدائن.

المرحلة الأولى:

كانت وصية أبى بكر لأمرائه أن يتجهوا إلى الحيرة، على ألا ينالوا العرب الفلاحين بسوء، فهم عرب، فضلا عما يشعرون به من ظلم الفرس الذى يجب أن يزول حين مقدم العرب، ليعمهم العدل على أيدى بنى عمومتهم.

---

(١) الطبرى، ١/ ٤/ ٢٠٢١ - ٢٠٢٢.

وكان جنود خالد قد قل عددهم بعد قتال اليمامة، وتسريح من شاء الرجوع بإذن الخليفة، حتى لا يستفتح بمتكاره، وألا يكون معه فى الغزو أحد ممن ارتد حتى يرى الخليفة رأيه فيه، ولهذا استمد خالد أبا بكر، فأمده بالقعقاع بن عمرو التميمى، فلا يهزم جيش فيه مثله، كذلك أمد عياضا بعبد بن عوف الحميري.

ولم يلبث خالد أن حشد ثمانية آلاف من ربيعة ومضر إلى ألفين كانا معه، ثم سار إلى العراق على رأس عشرة آلاف قدم بهم، على ثمانية آلاف كانوا مع أمراء الجند المسلمين الذين سبقوه إليه، والمثنى فى مقدمتهم.

وكان أمر أبى بكر إلى خالد أن يبدأ بالأبلة(*)، ولكن الرواة يجمعون على أن أول غزاة بالعراق كانت فى الحفير، بينما يختلفون فى أمر الأبلة، هل كان فتحها فى عهد أبى بكر أو على عهد عمر؟ وكان أمير منطقة الحفير من قبل فارس يدعى «هرمز»، ومن أسوأ أمراء الثغور معاملة للعرب، حتى ليضرب به المثل فى الخبث والكفر، وكان يعتبر نفسه حامى البلاد، لصده هجمات العرب وغاراتهم فى البر، وقراصنة الهنود فى البحر.

وقد سار خالد من اليمامة إلى العراق على رأس عشرة آلاف من الجند. وما إن بلغ حدود هرمز حتى ألفى المثنى وجنده فى انتظاره، وحينئذ قسم الجند كله ثلاث فرق، وجه كل واحدة منها إلى طريق، على أن يلتقوا جميعا بالحفير.

وسارت الفرقة الأولى بقيادة المثنى، وتبعتها بعد يوم فرقة أخرى على رأسها عدى ابن حاتم الطائى، وبعد يوم آخر سار خالد فى المؤخرة، وكان خالد قد أرسل إنذارا إلى هرمز الذى بلغه مع كتاب خالد أنباء جند المسلمين ومسيرهم فكتب إلى أردشير بالخبر، وجمع جموعه وسار إلى الكواظم ليلقى فيها خالدا، ولكن أنباء أخيرة جاءته بأن خالدا أمر أصحابه بالسير إلى الحفير، فأسرع بجنده إليها، ونزل على الماء فيها. وقدم خالد ليجد جنده على غير ماء، فيقرر معهم ضرورة مجالدتهم على الماء.

وكان على مجنبتى هرمز أميران من بيت الملك فى فارس، هما: «قباذ» و«أنوشجان»، وأدرك هرمز أنه لن يدرك غرضه إلا بقتل خالد، فناداه وعهد إلى جماعة من فرسانه أن ينقضوا عليه فيقتلوه. وسمع خالد النداء، فمشى إلى هرمز والتقيا،

(*) على الخليج الفارسى وهو الثغر الذى تسير منه التجارة إلى الهند والسند وترد إليه منهما للعراق.

فاغتنمها فرسان هرمز، وشدوا يريدون قتل خالد واستخلاص قائدهم من يده، لكن القعقاع بن عمرو لم يمهلهم، فشد المسلمون وانهزم أهل فارس، وطارد المسلمون الفرس إلى الليل، حتى بلغوا الجسر الأعظم من الفرات، وطار المثنى فى أثرهم يلاحقهم[1].

وكان لهذه الغزوة الأولى أثر عظيم، ألهب حمية المسلمين، فقد قتل هرمز بين يدى خالد، وغنم المسلمون ما شاء الله لهم أن يغنموا، حتى بلغ نفل الفارس ألف درهم خلا السلاح. وزاد نصر المسلمين جلالا تنفيذ خالد للسياسة التى رسمها أبو بكر مع العرب الفلاحين بالعراق، فسبى المسلمون أبناء المقاتلة الذين كانوا يقومون بأمور الأعاجم، أما الفلاحون فتركوا وأقروا، وجعلت لهم الذمة.

وما لبث أردشير بعد أن تسلم رسالة هرمز أن دعا إليه أحد الأمراء الفارسيين المسمى قارن بن قريانس، وجعله على رأس قوة عظيمة سارت مددا لجيش الثغور، وانضم إليها قباذ وأنوشجان على رأس فلول المنهزمين وعسكروا بالمذار، وعلم المثنى فى عودته من مطاردة الفالة بأمر هذا الحشد، وخشى أن يقابله دون خالد، فكاتبه بتفصيل ما عنده وأنزل جنده منزلا قريبا من المذار، وطار خالد بجيشه فبلغ المذار وقارن يعد للقاء المثنى. وأخاف قدوم خالد الفرس الموتورين، وإن لم يضعف عزمهم، وخيل إلى قارن أنهم إن هاجموا خالدا قبل أن يتخذ للموقف عدته لم يفتهم الظفر بالمسلمين وردهم إلى ديارهم. ولكن خالدا كان على أهبة الاستعداد، فشد عليهم. ورأى المثنى فى قدوم خالد معجزة أمد الله بها المسلمين فانقلب جنده من الخوف إلى اليقين بالنصر أسودا كاسرة، والتحم الجمعان فإذا بقارن وقباذ وأنوشجان يُذبَحون بأعين جنودهم، وسيوف المسلمين تطيح برءوس الفرس من كل جانب، فيفرون إلى السفن يتخذونها مطاياهم للنجاة[2]. وقد أخذ الفرس تحت وطأة الهزيمة يحشدون عرب الضاحية والدهاقين لمعركة يثأرون فيها، وفى الوجة أوقع بهم خالد، وكانت الإصابة فى بكر بن وائل فادحة[3].

---

(١) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٢١ - ٢٠٢٢.

(٢) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٢٧-٢٠٢٩.

(٣) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٢٩-٢٠٣١.

ورأى العرب من نصارى بكر بن وائل أن يثأروا لهزيمتهم، فكاتبوا الفرس واجتمعوا على أليس، ولكن خالدا تمكن منهم، وقتل من العرب والفرس سبعين ألفا[1]. واستمر خالد فى طريقه إلى أمغيشيا، لأن أليس من مسالحها، فخربها وفرق أهلها[2]. ثم استقل خالد النهر، متخذا من سفن أمغيشيا التى غنمها المسلمون مطية إلى مرزبان الحيرة، الذى نهض فى عسكره إلى خارج الحيرة، وأمر ابنه فسد قناطر الفرات، ليحول دون مسيل الماء فيما وراءها، فيعوق ذلك مسير السفن إليهم. وبينما خالد وجنده يدفعون بسفنهم شمالا إلى الحيرة إذ جنحت السفن وارتطمت بقاع النهر، فخرج خالد فى كتيبة من فرسانه، فلقى ابن المرزبان على فم العقيق، وقتلوه فى جنده شر قتلة، وأعاد خالد الماء يجرى فى النهر، فعادت المياه تقل السفن إلى الخورنق، حيث نزل المسلمون يستعدون لفتح الحيرة[3].

وكان أهل الحيرة متحصنين بقصورهم، فحاصرهم خالد، بأن جعل أصحابه يحاصر كل منهم قصرا، ثم دعوهم وأجّلوهم يوما فأبوا، فناوشهم المسلمون، وانتهت المناوشة باستجابتهم إلى الجزية وعقد الصلح[4]. وما إن سقطت الحيرة حتى أخذ الدهاقين يتتابعون على صلح المسلمين، إذ كانوا يترقبون ما يصنع أهل الحيرة. وبذلك بلغ سلطان المسلمين شاطئ دجلة، وأصبحوا مهددين له، ومن ثم أخذ خالد يكتب إلى أمراء فارس ومرازبتهم يدعوهم وينذرهم ويتوعدهم.

وبينما ينهى خالد ما نيط به من خطة أبى بكر بدخوله الحيرة لا نسمع شيئا عن شريكه عياض، الذى يدفع بخالد إلى إرجاء المرحلة الثانية من الخطة حتى يستنقذه، فيخلف القعقاع بن عمرو على الحيرة فى طريقه إلى الأنبار، وكان أهلها قد تحصنوا وخندقوا وأشرفوا من حصونهم، فأمر خالد بأن ترشق عيونهم، فأصاب منهم المسلمون ألف عين، ولهذا فقد سميت تلك الوقعة بذات العيون[5]. وأفلح خالد فى أن يسد الخندق بالمناحر، واجتازه المسلمون، وفضوا الحصون، وأعملوا فى سكانها السيوف، ثم

---

(١) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٣١- ٢٠٣٦.
(٢) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٣٦.
(٣) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٣٧-٢٠٣٨.
(٤) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٣٨.
(٥) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٥٩.

خلف عليها الزبرقان بن بدر. وانطلق بعد أن صالحه أهل كلواذى يريد عين التمر، حيث اجتمع على حربه فيها جمع كبير من الفرس والعرب من النمر وتغلب وإياد، جعلهم الفرس فى مواجهة المسلمين، حتى يقاتلوا وهم أقوياء، إذا لم يثبت العرب أمام المسلمين، ولم يثبت العرب أمام المسلمين، فقتل عقة بن أبى عقة زعيم العرب، وفر مهران قائد الفرس، وتمكن خالد من اقتحام الحصن الذى فر إليه الفرس وقتلهم فيه جميعا[1].

بعث خالد بالأخماس إلى أبى بكر مع الوليد بن عقبة، واستطاع أبو بكر أن يقف منه على سأم خالد من بقائه بالحيرة، وضيقه بانتظار عياض، وكان أبو بكر يرى موقف عياض مضعفا لروح المسلمين، فأمر الوليد أن يتجه لعياض بدومة الجندل، وألفى الوليد عياضا يحاصر القوم ويحاصرونه، وقد أخذوا عليه الطريق، فأشار الوليد بالاستنجاد بخالد، وما كان لعياض أن يتردد وقد بقى سنة لا يقوى على خصومه، فبعث رسولا إلى خالد أدركه يوم فراغه من عين التمر.

وما كاد خالد يفض كتاب عياض حتى تهلل، ورد الرسول لساعته يحمل كتابا إلى عياض فيه:

إياك أريد:

البث قليلا تأتك الحلائب يحملن آسادا عليها القاشب

كتائب تتبعها كتائب

وخلف خالد على عين التمر عويم بن الكاهل الأسلمى، وخرج يحث السير فى جنده إلى دومة الجندل، وبينه وبينها ثلاثمائة ميل، وقطعها فى أقل من عشرة أيام بعزم لا يعرف الخطر. وما إن تسامعت القبائل بمقدمه حتى بهتت واختلفت. وكانت القبائل المعسكرة بدومة الجندل قد تضاعف عددها عما كان عليه منذ عام، ذلك أن بنى كلب وبهراء وغسان نفروا من العراق منحدرين إلى دومة الجندل ليثأروا من عياض لهزائمهم أمام خالد. وكان على هذه القبائل أكيدر بن عبدالملك، والجودى بن ربيعة، وكان من رأى أكيدر الصلح، فلما لم يتسن له حمل قومه عليه تركهم نجاة بنفسه، فأرسل خالد إليه من

(١) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٦٢-٢٠٦٤.

أتى به وقتله. ونزل خالد عليهم فأظفر الـله المسلمين، بعد أن أسروا رؤساء القوم، وقتلوا من التجأ إلى الحصن، عدا حلفاء تميم من كلب، فقد أجارهم عاصم بن عمرو[1].

وكان لعرب الجزيرة أن يثأروا لمقتل عقة، ولهـزيمة عين التمر، فكاتبوا الفرس فخرج روزمهر وروزبه يريدان الأنبار، واتعدا حـصيدا والخنافس، وفى نفس الوقت خرج الهذيل ابن عمران فـعسكر بالمصيخ، بينما عـسكر ربيعة بن بجيـر بالثنى، وعلم الزبرقان بن بدر أمير الأنبار بأمر هذا الترتيب الحربى، فكاتب القعـقاع أمير الحيرة الذى بعث إليه بأعبد بن فدكى السـعدى، وأمره بالحصـيد، وبعروة بن الجعـد البارقى، وأمره بالخنافس، فـخرجا فحالا بين روزمـهر وروزبه ومقصـديهما. وبلغت الأنبـاء خالدا فحث السيـر إلى الحيرة، حيث خلف عليها عياضا، ورمى بالقعقاع وأبى ليلى بن فدكى أمامه إلى عين التمر، فلما وافاهما وجه القعقاع إلى الحصيد وأبا ليلى إلى الخنافس، ليعطى القوم فرصة للتجمع حتى يقاتلهم مرة واحدة مجتمعين[2].

وسار القعـقاع إلى الحصيـد وعليه روزبة، فاستغـاث هذا بروزمهر فأغـاثه بنفسه، والتقى المسلمون بالفرس فى الحصيد، فقتلهم الله شـر قتلة، وقتل القعقاع روزمهر، وقتل عبدالله الضـبى روزبة. وسار أبو ليلى إلى الخنافس وعليها المهبوذان فـانهزم أمام المسلمين دون قتال، وفر جنده إلى المصيخ، يلتحقون بمن فيها من العرب.

وعقد خالـد اجتماعا لقواده، واتفـقوا على اللقاء بالمصيخ فى ساعة بعـينها، توافوا إليها من ثلاث جهات، فبيتوا الهذيل ومن معه، وملئوا الفضاء بجثث القتلى. ورأى خالد أن يبـغت تغلب فى دارها، فـتقـدم إلى قـائديه القعـقـاع وأبى ليلى بأن يرتحـلا أمامـه، وواعدهما الغـارة على تغلب فى ليلة بعينها، واجتمع القـواد الثلاثة من ثلاثة أوجه، فلم يكد يفلت من جيش بنى تغلب أحد.

وذاعت أنباء خـالد وفعاله بالقبـائل وعجزها عن مقـاومته، ففت ذلك فـى أعضاد رجال البـادية بالعراق، فألقوا سـلاحهم وطلبوا الأمـان. وجعل خالد يسيـر على شاطئ الفرات فيما حوله فلا يلقى إلا الإذعـان، حتى بلغ الفراض، وهى تخوم العراق والشام،

(١) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٦٥- ٢٠٦٧.

(٢) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٦٧-٢٠٧٣.

توجد الروم فى مواجهته، ليس بينه وبينهم غير مجرى الفرات. وقد أغاظ الروم أن يقيم جيش المسلمين فى مواجهتهم، وأن يطيل المقام غير عابئ بهم، ولا بكتائب الفرس القريبة، ولا بأهل البادية من تغلب والنمر وإياد المنتشرين حولهم فى كل مكان. ولم يلبث هؤلاء وأولئك أن انضموا إلى الروم وحرضوهم وأمدوهم، فسار خالد حتى إذا لم يبق بينه وبينهم غير الماء بعثوا إليه يخبرونه بين أن يعبروا إليه أو أن يعبر إليهم، فاختار عبورهم. وفيما يعبرون صف خالد صفوفه ودبر خطته، والتقى الجمعان، وأبلى المسلمون بلاء لم يعهده أعداؤهم، فلم يثبتوا لهم، وانكشفوا وأدبروا، والمسلمون من ورائهم يمعنون فى قتلهم، حتى بلغ من قتل فى هذه الواقعة مائة ألف من أعداء المسلمين[1].

أقام خالد عشرة أيام بعد وقعة الفراض، ثم أذن فى الناس بالرجوع إلى الحيرة، لخمس بقين من ذى القعدة من السنة الثانية عشرة، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالمسلمين، وأظهر أنه بالساقة، وفى نفس الوقت أمر شجرة بن الأعز أن يسوقهم. ومن ثم مضى هو إلى الحج ــ لا يعلم أحد بذلك ــ فى طريق غير مطروقة، متعسفا البلاد، ومتسمتا مكة[2].

وما إن قضى نسكه حتى سارع إلى جنده فأدركهم فى دخولهم الحيرة، فالتحق بالساقة كأن لم يكن شيء. وقد اعتبر أبو بكر هذا العمل ــ حينما علم به بعد ذلك ــ زهوا من خالد بنفسه واغترارا. وحدث أن مست الحاجة إلى رمى الروم بمثل ما رمى به الفرس، فتلقى خالد بالحيرة كتابا من أبى بكر يأمره بأن يسير حتى يأتى جموع المسلمين باليرموك، فقد شجوا وأشجوا، على ألا يعود لمثل ما فعل، وألا يدخله عجب، وألا يدل بعمل. على أن يستخلف المثنى على العراق فى نصف الناس، وأن يأخذ معه النصف، «فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى العراق وأنت معهم، ثم أنت على عملك»[3].

المرحلة الثانية:

انتهت المرحلة الأولى من الفتوح الشرقية باستنقاذ عياض واستقامة العراق للمسلمين أسفله وأعلاه. وبدأت المرحلة الثانية بنفس البداية، فالمثنى وحده فى العراق بعد أن صدع

---

(١) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٧٣-٢٠٧٥.

(٢) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٧٥-٢٠٧٦.

(٣) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٨٩- ٢١١٠

خالد بأمر أبى بكر، وتوجه فى نصف جيش العراق إلى اليرموك. ولم يكد المثنى يعود من وداع خالد إلى تخوم الصحراء حتى بدأ ينظم الدفاع عن البلاد التى فتحها المسلمون. فلا ريب أن الفرس سيتحرشون به متى علموا بسفر خالد، ولا ريب كذلك فيما سيتكشف عنه حقد القبائل العربية التى لم يصلحها إلا بطش خالد، ولكنه أحفظها كذلك، فباتت تترقب الثورة بالمسلمين. وقد شعر خالد قبل توجهه إلى الشام بدقة الموقف، فبعث بالنساء والصبيان والضعفاء إلى المدينة.

ووجد المثنى نفسه فى حالة لا يحسد عليها، فهو رائد الفتح فى هذا الميدان وطليعته، وليس من الهين على نفسه أن يهزم فيه، وزاد الموقف صعوبة أن الفرس استقام أمرهم على شهر براز بن أردشير، الذى أراد إرهاب المثنى، فوجه إليه جندا كثيفا، بقيادة هرمز جاذويه، وفى مقدمة جيشه فيل كبير. ولم ينتظر المثنى أن يقدم عليه الفرس فى الحيرة، متخطين المناطق التى حازها المسلمون، فخرج إليهم فى جنده، وسار حتى بلغ أطلال بابل، وعلى مقدمتيه أخواه المعنى ومسعود، فعسكروا على مرتفع يبعد خمسين ميلا من المدائن. والتقى الجمعان، وكانت معركة رهيبة، ابتلى فيها المسلمون بالفيل الذى عانى منه الجند والخيل، حتى دل المثنى على مقاتله فقتله، وهاجموا الفرس فهزموهم شر هزيمة واحتلوا معاقلهم، وتعقبوا فلولهم إلى أبواب المدائن[1].

ونزلت الهزيمة على شهر براز نزول الصاعقة، فحم ومات. وعاد الاضطراب إلى البلاط الفارسى من جديد، فاطمأن المثنى قليلا، ولكنه حسب حساب الغد حينما تنتهى هذه الخلافات، ولا بد له أن يكون مستعدا للقائهم لقاء حاسما. والخليفة لا يمكن أن يمده وجيوشه موزعة فى الشام والعراق، ولو كان فى الإمكان إمداده لما فصل خالد بنصف جيش العراق، ولكنه كتب إلى الخليفة يستأذنه فى الاستعانة بمن ظهرت توبته من أهل الردة. وفى انتظار رد الخليفة أقام يدبر خطته ويحكم تدبيره، وأبطأ رد الخليفة، ولم ير المثنى بدا من الانسحاب إلى أدنى أرض العراق من حدود البادية، حيث خلف على المسلمين بشير بن الخصاصية، وذهب بنفسه إلى المدينة ليرى رأيه مع الخليفة. وفى المدينة ألفى المثنى أبا بكر مريضا مرضا يشفى على الموت، ولكنه استقبله، واستدعى عمر بن الخطاب فأوصاه أن يندب الناس مع المثنى، لا تشغله مصيبة وإن عظمت عن وصيته.

---

(١) الطبرى ١/ ٤/ ٢١٥٢..

ويقضى الخليفة الأول فى الحادى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٣هـ بعد إصدار أمره بندب المسلمين مع المثنى، لاستكمال المرحلة الثانية من الخطة التى رسمها. ولم يضيع الخليفة الثانى وقتا، فأخذ يندب الناس باذلا فى ذلك جهده، حتى بلغ له من أهل المدينة ومن كان قد ارتد حشد كبير، أمر عليه أول منتدب ــ أبا عبيد عمر بن مسعود الثقفى ــ وعجل المثنى، فسبق أبا عبيد، ووصل إلى الميدان بعد عشر ليال، ليلحق به أبو عبيد بعد شهر من وصوله.

ولا يكاد المثنى يستقر بين جنده حتى يسأل عما آل إليه أمر البلاط الفارسى فيبلغه أن الفرس ولوا ابنة كسرى عليهم ثم خلعوها، وخلفها سابور بن شهريران، الذى تآمرت عليه ابنة عمه آزرميدخت، فقتل وقتل وزيره الفرخزاد، وجلست على عرش فارس. لكن القائد رستم بن الفرخزاد انتقم لأبيه، فألحق الهزيمة بجيوش الملكة وحاصر قصرها. وأقام بوران ابنة كسرى على عرش البلاد، فأطلقت يده فى أمور الدولة وجعلته على الجند، وأمرت أهل فارس أن يسمعوا له ويطيعوا.

وبلغ أبو عبيد العراق، فوجد المثنى قد انسحب إلى «خفان» على حدود البادية، لأن رستم أوعز إلى الدهاقين بالسواد أن يثوروا بالمسلمين، ودس فى كل رستاق رجلا يثير أهله، ثم أرسل جندا لمصادمة المثنى، الذى آثر الحذر وانسحب من الحيرة، حتى لا يؤتى من خلفه. وفى «خفان» وافاه أبو عبيد، وأقاما يدبران خطة لملاقاة الفرس.

وكان رستم قد عهد إلى جابان ــ أحد قواده ــ أن يتجه على رأس جيش عظيم إلى الحيرة، كما عهد إلى قائد آخر هو نرسى أن يتجه إلى كسكر. وخرج المسلمون بعد أن جمعوا فى «خفان»، فالتقوا بهم عند النمارق، واقتتلوا قتالا شديدا، أظفر الله فيه المسلمين، فأسروا جابان ومردا نشاه[1].

وما إن علم رستم بهزيمة جابان حتى أمر الجالينوس بأن يسير إلى المسلمين فيلحق بنرسى فى كسكر، ولكن أبا عبيد كان أسرع منه، فحث بجنده السير لمواجهة نرسى، الذى انحاز إليه فل النمارق. والتقى المسلمون بالفرس فى مكان يدعى بالسقاطية على مقربة من كسكر قبل أن يصل الجالينوس. ولم يثبت نرسى أكثر مما ثبت جابان، ففر فى

(١) الطبرى ١/ ٤/ ٢١٥٢- ٢١٦٨.

جنده تاركا لهم مغانم كثيرة. وأقام أبو عبيد بكسكر، بينما سرح المثنى وغيره من القواد يغيرون على النواحى القريبة، فاحتلوا سواد العراق ــ أسفله وأعلاه ــ وأذاعوا الرعب فى القوم، معيدين إلى ذاكرتهم أيام خالد بن الوليد. فما لبث الدهاقين حتى جاءوا أبا عبيد يصالحونه، ويعتذرون عن ممالأة الفرس، وأن ذلك كان بإكراههم. ولما تم الصلح معهم جاءوه ببعض الهدايا[1]، ونهد أبو عبيد للجالينوس الذى كان تحول إلى باقسياثا فهزمه وألجأه إلى الفرار[2].

وتبلغ الهزيمة رستم، فيجهز جيشا عليه بهمن جاذويه، ويبعث بالجالينوس والفيلة وراية فارس الكبرى «درفش كابيان» فى جيش لم يعرفه المسلمون من قبل، وتراجع أبو عبيد بجنده إلى قرية قس الناطف، بعد أن عبر النهر إليها وتحصن بها ينتظر عدوه. وأقبل بهمن يفصل بينه وبين المسلمين النهر، وبعث يخير أبا عبيد فى أن يعبر إليهم أو يعبروا إليه وأشار أصحاب أبى عبيد عليه بألا يعبر، وأن يدع الفرس يعبرون، لكنه أخذته العزة فقال: والله لا يكونون أجرأ منا على الموت، بل نعبر نحن إليهم. وعبر، فعبر المسلمون واقتتلوا على الجسر، فأصيب من الفرس ستة آلاف قتيل وغريق، ولم يبق لهم إلا الهزيمة، برغم هول الفيلة وخيبة الخيل بإزائها، وحدث أن أبا عبيد كان يعالج فيلا فخبطه وأصابه، فتضعضع المسلمون لإصابة قائدهم، وركب الفرس أكتافهم، فبادر رجل من ثقيف إلى قطع الجسر، ظنا منه أنه بذلك يمنع الفرس عن المسلمين فكانت الطامة، إذ أخذت السيوف المسلمين من كل ناحية، فتهافتوا فى الفرات، واستطاع المثنى فى حماية نفر من المسلمين أن يعقد الجسر، وعبر المسلمون إلى المروحة عائدين إلى مكانهم. وأصيب المثنى بجراح وهو يعقد الجسر. وفر ألفان من المسلمين وقتل أربعة آلاف منهم. وبقى المثنى فى ثلاثة آلاف فحسب[3]. وكانت هزيمة الجسر.

هذه أول هزيمة صادفها المسلمون، ولهذا كان أثرها فى المسلمين أليما وعنيفا، حتى ليتجاوز ميدان المعركة إلى المسلمين فى المدينة، حيث لجأ الفارون. ورأى عمر بثاقب رأيه

---

(١) الطبرى ١/ ٤/ ٢١٦٨- ٢١٧٠.

(٢) الطبرى ١/ ٤/ ٢١٧٢.

(٣) الطبرى ١/ ٤/ ٢١٧٤- ٢١٨٢.

أن يحتضنهم، وأن يعتبرهم متحفزين لقتال، ليدارى افتضاحهم فى ثباتهم ورجولتهم فيقول: أنا فئة كل مسلم[1].

انحدر المثنى بجنده جريحا إلى أليس، فقد خشى أن يتعقبه بهمن واضعا فى تقديره قوة عدوه وقوته، وصح ما توقعه المثنى، فقد تجهز بهمن لتعقبه، إلا أن الأنباء واتته بتجدد الاضطرابات فى المدائن، واختلاف الفرس فرقتين، إحداهما مع رستم والأخرى مع الفيروزان. فعاد بهمن إلى العاصمة، وخلف من ورائه جابان ومردانشاه فى كتيبة من الجند، فسارا يتعقبان المثنى، فخرج إليهما وأسرهما وأصحابهما، وضرب أعناقهم جميعا. فقد خدعا أبا عبيد يوم أسرا بالنمارق، وعادا إلى حرب المسلمين. وفى هذا الوقت كان عمر فى المدينة يحشد أمدادا من بجيلة وضبة، وممن ظهرت توبتهم من أهل الردة. وأدرك المثنى أن هذه الإمدادات تحتاج إلى وقت طويل حتى تصل إليه، وسرعان ما تنتهى الاضطرابات فى العاصمة حتى يعود الجند تتقدمهم الفيلة، فبعث إلى من يليه من قبائل العرب فتوافوا إليه فى جمع عظيم، بينهم نصارى بنى النمر، ونقل عسكره من أليس إلى مرج السباخ بين القادسية وخفان ليكون على تخوم العرب يلجأ إليهم عند الحاجة. وكان عمر يتصور حال المثنى وموقفه الدقيق، فضاعف جهده فى ندب الناس المتثاقلين، بعدما رأوا فالة الجسر وفرارهم، فاستصلح عمر جرير بن عبدالله البجلى فى جمع من بجيلة، وحذا الناس حذو بجيلة، فانضم إليهم من فر يوم الجسر وكثير من الأزد، وبنى كنانة، وخلق كثير من مختلف القبائل، وتحمل الناس ومعهم نساؤهم وساروا يريدون المثنى.

وانتهى الخلاف بين رستم والفيروزان، وهالتهما أنباء الأمداد التى تسير تباعا إلى العراق، فجمعا جندا عظيما، جعلا عليه مهران الهمذاني. وسار مهران فى جنده تتقدمه الفيلة، وفى خاطره أن يحرز نصرا ينسى الناس انتصار بهمن يوم الجسر. وقد علم المثنى بمسيره، فسار إلى البويب مكان الكوفة الحالية بعد أن كتب إلى أمراء الأمداد بموافاته فيها. وسار مهران حتى وقف قبالة جيش المسلمين، لا يفصل بينهما غير النهر. وأرسل يخير المسلمين فى العبور، ولم يكن المثنى قد نسى ما حدث لأبى عبيد. فعبر الفرس إلى البويب، وتعبئوا فى صفوف ثلاثة على كل فيل. ولم يكد المسلمون يسمعون التكبيرة

(١) البلاذرى ص٢٥٢.

الأولى حتى أعجلهم الفرس فشدوا عليهم، فاختلت صفوفهم، ولكنهم عادوا فشدوا، وترجحت المعركة حامية الوطيس حتى حمل المثنى على قائد الفرس فأزاله عن مكانه، ودخل فى ميمنته. ورأى الفرس ما حدث فاندفعوا يحمون قائدهم، وتقهقر القلب تحت ضربات المسلمين إلى النهر يريدون العبور، فسبقهم المثنى والمسلمون فردوهم عنه. فازداد اضطرابهم بعد أن حصروا فقتلوا شر قتلة، حتى لقد سمى يوم البويب بيوم الأعشار، لأنهم أحصوا مائة رجل من المسلمين قتل كل منهم عشرة من الفرس، وأمعن المسلمون يتعقبون الفالة إلى الليل، وأحصوا القتلى مائة ألف من الفرس، تلوح عظامهم تلولا[1].

انتصر المسلمون انتصارا مبينا، تطهروا فيه من عار هزيمتهم يوم الجسر، وإن كانوا فقدوا عددا كبيرا بين جريح وقتيل. ولم يضع المثنى وقتا، فأمر قواده فانطلقوا فى السواد حتى بلغوا ساباط على مرأى من المدائن وجيوش الفرس تفر أمامهم فرار النعام. وانطلق هو فغزا الخنافس والأنبار أيام سوقهما فنال منهما غنما كثيرا. فبلغ المسلمون دجلة وأغاروا على قرية بغداد. وبلغوا تكريت يقتلون المقاتلة، ويسبون الذرية ويستاقون الأموال. ودان بهذه الغزوة العراق لسلطان المسلمين كرة أخرى[2].

وتدبر الفرس موقفهم. فما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن، والخلافات عادت جذعة بين رستم والفيروزان، حتى ضج الفرس منهما، وأنذروهما إن لم يجتمعا على حرب المسلمين. وقد استجابا وتشاورا على تنصيب يزد جرد بن شهريار، واجتمع الفرس عليه وتبارزوا فى معونته، وأعدوا العدة للثأر. وعلم المثنى بذلك، فكاتب الخليفة الذى أبطأ رده، فلم ير المثنى بدا من أن ينسحب كرة أخرى إلى تخوم شبه الجزيرة، فنزل بذى قار ينتظر مدد الخليفة.

وفى نفس الوقت بدأ يزدجرد حركة عامة للحشد، استعدادا لمعركة فاصلة فسمى جند الأماكن التى سيطر عليها المسلمون، فثارت هذه الأماكن وكفر أهل السواد، فى الوقت الذى خرجت فيه الزحوف من المدائن، واهتزت الأرض بالمسلمين، وجاءهم أمر الخليفة بأن يتفرق المسلمون بين المياه التى تلى الأعاجم على حدود أرضهم مسالح..

---

(١) الطبرى ١/ ٤/ ٢١٩٣- ٢١٩٩.

(٢) الطبرى ١/ ٤/ ٢٢٠٢-٢٢٠٧.

مسالح، يغيث بعضهم بعضا، وكان قد كتب إلى عماله بألا يدعوا فارسا أو ذا نجدة أو سلاح أو رأى إلا اجتلبوه. وما كاد يعود من الحج حتى وافاه الجند من كل صوب، وخرج فيهم إلى صرار فى المحرم سنة ١٤هـ فعسكر بها، لا يدرى ما يصنع. وعقد مؤتمرا عسكريا، ضم أولى الرأى الذين أجمعوا على أن يقيم عمر، وأن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ كسعد بن أبى وقاص وكان على صدقات هوازن وأجمع المسلمون عليه، فسرحه فى أربعة آلاف ممن اجتمع إليه. وكانت بعض الجموع قد لحقت قبله بالمثنى، وقد كان بهذا الجيش خلاصة الأمة الإسلامية وقتئذ، إذ لم يدع عمر رئيسا ولا ذا رأى أو سلطة أو نجدة ولا شاعرا أو خطيبا إلا رماهم به، فضلا عن بضعة وسبعين بدريا، وثلاثمائة من أبناء الصحابة. وقبل أن يصل سعد مات المثنى متأثرا بجراحه يوم الجسر ويوم البويب، تاركا وصيته لخلفه فى معالجة الفرس.

واستمرت المكاتبات بين سعد والخليفة ينصحه ويوجهه ويأمره بأن يرسل إلى الفرس من أهل المناظرة والرأى، فاختار قوما أجلاء، تحدثوا إلى يزدجرد وقواده أحاديث شائقة وبارعة عن روح الإسلام، التى لم يستطع الفرس إدراك أثرها فى حياة العرب. وفصل رستم من المدائن فى تعبئة كبرى وعدد جنوده زهاء مائة وعشرين ألفا، وسارت طلائعه حتى وصلت الحيرة فنزلت بها، وسار رستم حتى أتى النجف فعسكر بها، والطلائع تسير أمامه، ولم يزل الجيشان يتقاربان حتى وقف رستم على العقيق، وسعد أمامه.

والتقى الجيشان على الدعاء والمكاتبات حتى خرس صوت المنطق، وأجمع رستم أمره على العبور، وكان سعد قد عبأ جيشه، فأقام بأعلى القصر لمرض كان به، يشرف على المعركة من عل، ويرمى بالرقاع إلى خالد بن عرفطة وهو أسفل منه.

وكان وراء الفرس العقيق، ووراء المسلمين الخندق، وميدان المعركة بين ذلك، وعند الظهر أنشب أهل النجدات القتال، وأشعل الرُّجَّاز أوارَ الحماس. وكان سعد قد أمر الشماخ، والحطيئة، وعبدة بن الطبيب، والمغيرة بن شعبة، وعاصم بن عمرو، وعمر بن معد يكرب وغيرهم ليقوموا فى الناس بما يحق عليهم، يذكرونهم ويحرضونهم على القتال[1].

(١) الفاروق ، هيكل ص١٦٨.

وأقبل أهل فارس عليهم فى مثل حماسهم، يلبون نداء من يريدون نزالهم. وكان غالب بن عبدالله الأسدى فى مقدمة من خرجوا يبارزون، وأخذ يرتجز، فخرج إليه هرمز فأسره غالب وجاء به سعدا، ورجع إلى المطاردة. وبينما هو يرتجز طارد فارسيا نفر منه. فلقى فارسا معه بغل، ففر الفارس، فاستاق عاصم بن عمرو البغل والرجل، فإذا الرجل خباز الملك، وإذا فى الرحل طعام رستم، فنقله سعد للمسلمين ليأكلوه.

وكبر سعد التكبيرة الرابعة ــ وكان القراء قد انتهوا من سورة الأنفال ــ فالتقى الجيشان. وأبلى أبطال المسلمين بلاء لم يعرف له نظير. ورأى الفرس بنى بجيلة وعليهم جرير بن عبدالله يصولون ويجولون، فوجهوا إليهم ثلاثة عشر فيلا، حملوا عليهم ففرت خيلهم نفارا، وبقى الرجال وتكاد الفيلة تبيدهم. ورأى سعد ما أصاب بجيلة، فأرسل إلى بنى أسد ليذبوا عنهم، فخرج إليهم طليحة بن خويلد وجماعة من قبيلته، فشدوا عليهم، فمازالوا يطعنونهم حتى حبسوا الفيلة عنهم. لكن الفيلة عادت فحملت عليهم، فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو ليرى رأيه فى الفيلة، فنادى عاصم الرماة ليذبو ركبان الفيلة بالنبل، فاستدبروها وقطعوا وضنها وضربوها بالنبل، فارتفع عواؤها وألقت بركبانها فقتلوا. ونفس عن أسد وعن بجيلة جميعا، بعد أن قتل من أسد وحدها أكثر من خمسمائة[1].

وظل سعد مشفقا من مصير المعركة، لما كان يراه من شدة الفرس وكثرة عددهم وفعال فيلتهم. وانقضى النهار وغربت الشمس والقتال لا يزال حاميا وطيسه. فلما ذهبت هدأة من الليل رجع الجيشان كل إلى مواقعه، وكل يحسب للغد حسابه، والمسلمون أشد لهذا الغد حسابا، بعدما نزل بهم فى اليوم الأول من كوارث.

فلما تنفس الصبح شغل العرب والفرس بدفن القتلى ونقل الجرحى، وقد دفن المسلمون قتلاهم بالعذيب، ونقلوا الجرحى إلى النساء ليقمن على العناية بهم. وبينما هؤلاء وأولئك فى شغل بهذا الأمر كان هاشم بن عتبة بن أبى وقاص يغذ السير فى ستة آلاف من المسلمين الذين فصلوا من الشام تنفيذا لأمر عمر إلى أبى عبيدة بأن يرد جيش العراق إليه بعد أن ينصره الله بدمشق. فلما فتحت دمشق وانتصر المسلمون بفحل انطلقوا مددا لسعد، وعلى مقدمتهم القعقاع فى ألف من شجعان المسلمين، وعجله هاشم أمامه

(١) مروج الذهب، ج٢، ص٢٠٥.

لم يدرك سعدا قبل فوات الوقت. وأراد القعقاع أن يشد عزائم المحاربين فى هذه الوقعة الخطيرة، فقسم رجاله الألف عشر فرق، وعهد إليهم ألا تسير فرقة حتى تكون الفرقة التى سبقتها على مدى البصر، ثم سار على رأس الفرقة الأولى، ثم تقدم الصفوف يستفتح القتال، فخرج إليه بهمن جاذويه، فصاح القعقاع: يالثارات أبى عبيد!! وانقض عليه فأورده حتفه، وتنشط الناس وهم يرون صنيع القعقاع ولم يروا الفيلة بينهم. وبدأت فرق القعقاع تفد، والمسلمون يكبرون، حتى خيل إلى الفرس أن لا آخر لها، وأبلى القعقاع وأبو محجن الثقفى فى هذا اليوم بلاء عجيبا، فقد حمل القعقاع ثلاثا وثلاثين حملة يقتل فى كل منها رجلا[1]. وصنع أبو محجن أفاعيل بالفرس تكاد تكون أساطير.

واتصل القتال إلى منتصف الليل، والمسلمون يرون فيه الظفر. وقد رفه عن المسلمين غياب الفيلة، وأن بنى عم القعقاع برقعوا إبلا وجللوها ودفعوها تحمل على الفرس كأنها الفيلة، فولت خيولهم نفارا من منظرها، ولقيت منها ما لقيت خيول المسلمين يوم «أرماث» فركبتهم قوات المسلمين، وأعملوا فيها السيوف قتلا وبترا. وتنصف الليل والمسلمون يزاحفون عدوهم يريدون إجلاءه عن مواقعه فيصيبون منه ويكثرون القتل فيه، ويكادون يظفرون به لولا كثرة عدده وشدة مقاومته. ولم يجد كل من الفريقين بدا من أن يرجع إلى عسكره، يعيد تنظيم صفوفه، ليعود فى الصباح إلى الزحف ابتغاء الظفر.

واطمأن سعد ونام، فقد وجد الناس مغتبطين، ينتمى كل منهم إلى قبيلته. أما القعقاع بن عمرو فبات ليله يسرب أصحابه الذين جاءوا معه من الشام إلى المكان الذى كانوا فيه بالصحراء صبح أغواث، وأمرهم أن يقبلوا مائة مائة إذا طلعت الشمس، على نحو ما فعلوه فى أمسهم، فإن أدركهم هاشم بن عتبة وجاء بمن معه فذاك، وإلا فقد جددوا للناس رجاء فى المدد. وأصبح الناس والجيشان فى مواقفهم، وبين الصفين ألفان من المسلمين بين قتيل وجريح، وعشرة آلاف من الفرس. فدفن كل جيش قتلاه ونقل جرحاه. ووقف القعقاع فى المؤخرة حين طلعت الشمس ينظر إلى ناحية الصحراء، فلما بدأت خيله تقبل كبر وكبر الناس معه. وكان هاشم قد أدرك رجال القعقاع وعرف ما صنع صاحبه، فقسم رجاله فرقا تتلاحق دراكا، فبلغ القادسية حين أخذ المسلمون مصافهم

---

(١) المرجع السابق.

للقتال، فلما رآه الناس ورآهم كبر وكبروا معه، واندفع هاشم إلى القلب حتى بلغ النهر وهو يرمى العدو، ثم عاد فكرر فعله فلم يجرؤ أحد على مصاولته. ولم يضعضع هذا من عزم الفرس، فقد أصلحوا توابيت الفيلة واقتحموا بها المعركة. ومنذ طلعت الشمس ورآها سعد تفعل الأفاعيل وتفرق بين الكتائب سأل جماعة من الفرس الذين أسلموا عن مقاتلها. فقالوا: مشافرها وعيونها. وقد تمكن القعقاع وأخوه عاصم من الفيل الأبيض فوضعا رمحيهما فى عينيه، وكذلك فعل حمال والربيل بالفيل الأجرب. وهرولت الفيلة فأحدثت هرجا ومرجا بين صفوف الفرس، وتواثبت فى العقيق وقد ألقت ركبانها، وتخطت الماء مدبرة ولم تعقب.

وواصل الجيشان القتال، وكأنما دار بخواطر الجند من الفرس والعرب ألا يضعوا السلاح حتى يحسم بينهم. وهدأ وطيس القتال حين أقبل الليل، وقدر سعد أن الجيشين سيقضيانه فى الاستعداد ليوم رابع، ولكنه خشى أن يأتيه العدو من مخاضة بأسفل العسكر، فأرسل طليحة وعمرو بن معديكرب فى جماعة وأمرهما بأن يقيما فيها حتى يأتيهما أمره، وسولت لهما نفساهما أن يخوضاها فيأتيا العدو من خلفه، واختلفا كيف يفعلان، فأخذ طليحة مكانه وراء العسكر، وكبر ثلاث تكبيرات، ارتاع لها أهل فارس فظنوا أن جيش المسلمين أزمع الغدر بهم، وظن المسلمون أن الأعاجم فتكوا برجالهم، فأغار عمرو على جماعة من الفرس أسفل المخاضة، فلم يعد لديهم ريب فى غدر المسلمين بهم فزحفوا، ورأى القعقاع صنيعهم فزاحفهم دون استئذان سعد، ولكن سعدا يطل فيراه يزاحفهم فيقول: اللهم اغفرها له وانصره، فقد أذنت له وإن لم يستأذنى، وتبعه المسلمون دون انتظار لتكبير سعد، واستقبلوا الفرس بالسيوف وخالطوهم. فكان للسيوف قعقعة، والمقاتلون لا يتكلمون بل يصيحون، والقتال يشتد ويحمى وطيسه كلما تقدم الليل. وبات الجيشان يقتتلان أشد قتال وأقساه، ولم يغمض لأحد من الجند تلك الليلة جفن. فلما أصبح الصباح جعل المسلمون ينتمون إلى قبائلهم، ولم يكن النصر قد عقد لواءه لأحد من الفريقين. وسار القعقاع فى الناس يقول: إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم، فاصبروا ساعة واحملوا، فإن النصر مع الصبر، فحمل المسلمون حتى الظهيرة فى جلاد باسل، حتى بدأت صفوف الفرس تضطرب وتراجع الفيرزان والهرمزان فى المجنبتين، فانفرج القلب وهبت ريح أطارت طيارة رستم إلى العتيق، وزحف القعقاع بمن معه إلى

سريره، ففر رستم إلى النهر واقتحم وراءه نفر من فرسان المسلمين، وصعد أحدهم على سريره يصيح: قتلت رستم ورب الكعبة!! إليّ إليّ، وطاف به الجند يهللون ويكبرون. وأسقط في يد الأعاجم ووهنت قوتهم، وانهد ركنهم، وقام الجالينوس يعبر بقومه النهر، لكن الردم انهار بهم في النهر، فغرق بانهياره ثلاثون ألف فارس مقترنين بالسلاسل، وانهزم جيش الفرس وانطلقت فلوله يولون الأدبار.

وأمر سعد فخرج القعقاع وشرحبيل وزهرة بن حوية يتعقبونهم، وأدرك زهرة الجالينوس يجمع المنهزمين فقتله. وجعل المسلمون يقتلون من يلونهم من الفرس ويأسرونهم دون مقاومة وجمع الناس الأسلاب والأموال فإذا هي شيء لا يحيط به خيال عربي، حتى لقد بلغ عطاء الفارس ستة آلاف، والراجل ألفين. وزاد أهل البلاء كل واحد منهم خمسمائة ــ فضلا عن الخمس ــ وما بقي بعد ذلك كثير، نحاه سعد ليبعث به إلى المدينة، وأمر عمر بتوزيعه فيمن لحق بسعد ولم يشهد الموقعة، وفي حملة القرآن.

وهكذا انتهت المعركة إلى النصر الحاسم، حين كان الناس في كل الأرجاء من شبه الجزيرة يتطلعون ببصائرهم وقلوبهم إلى ناحيتها، وهم على أحر من الجمر شوقا لمعرفة أنبائها من العذيب إلى عدن، ومن الأبلة إلى بيت المقدس، يتربصون وقعة القادسية، يرون أن ثبات ملكهم وزواله بها، وقد بعث أهل كل بلدة قاصدا يكشف ما يكون من خبرهم[1].

انطلق المسلمون في وادي العراق من أعلاه إلى أسفله، فعاد الناس جميعا إلى طاعتهم، معتذرين عن ولائهم للفرس بأنهم غلبوا على أمرهم، وسعد يعذرهم تألفا لهم، وحرصا على أن تسود الطمأنينة ربوعهم. فأقلبت قبائل العرب المنتشرة فيما بين النهرين يعلنون إيمانهم بالله وبرسوله. وقد مكث سعد بالقادسية شهر المحرم سنة ١٥هـ، وارتحل في نهايته بجيشه الذي أصبح معظمه فرسانا لكثرة ما غنموا من الخيل، ولقيتهم في سيرهم فلول القادسية، وعليهم الهرمزان فهزمهم المسلمون. وبلغ سعدا تجمع فلول الفرس ببابل، فسار إليهم وهزمهم. وأقام ببابل حيث سير من هناك مقدمته مع زهرة بن حوية إلى بهرسير أو المدائن الدنيا على شاطئ دجلة الغربي، فحاصرها شهرين وفتحها الله

---

(١) الطبري ١/ ٥/ ٢٢٦٤.

عليهم، ففر أهلها إلى الجهة الشرقية حيث المدائن القصوى ـ معقل الساسانيين وعاصمتهم ـ وأصبح من المحتم على زهرة أن يعبر دجلة، واستطاع بمعاونة بعض أهل البلاد أن يصل إلى مخاضة عبر خلالها المسلمون خوضا، وفى سرعة أذهلت أهل المدائن، الذين فوجئوا بالمسلمين دون أن يروا سفينا يقلهم إليهم، فتركوا المدائن وفروا، وكان يزدجرد قد سبقهم بالفرار إلى حلوان، وفى المدائن غنم المسلمون أموال كسرى وخزائنه وجواهره[1].

وبفتح المدائن تنتهى المرحلة الثانية فى هذه الفتوح، من الخطة التى رسمها أبو بكر، وتبدأ المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة:

أقام المسلمون بالمدائن مايزيد على سنة، لاحظ خلالها الخليفة عمر انتفاء التواؤم بين المسلمين وبيئتهم الجديدة هذه، فكان أن أمر بارتياد الأرض، وباختطاط البصرة والكوفة. وقد تم للمسلمين تمصير الكوفة فى المحرم من سنة ١٧هـ. وكانت أول أمرها مبنية بالقصب، وبنيت بعد ذلك باللبن بعد تعرضها للحريق. وفى نفس العام بنيت الأبنية بالبصرة التى كان المسلمون قد نزلوها فى أواخر سنة ١٣هـ، وأوائل سنة ١٤هـ، ولم يتم تخطيطها إلا مع الكوفة.

ومنذ هذا التاريخ صارت الكوفة والبصرة مركزين حربيين، تفصل منهما الجنود لحرب الفرس، وصار لكل منها جند خاص، ومناطق بعينها يناط بها فتحها وتنسب إليها. وصار المسلمون يفدون على عمر يشكون ضيق منازلهم بهم، ويطلبون السماح لهم بضم مناطق بعينها إليهم دون غيرهم[2].

وتكاد الفتوح فى أطراف فارس تكون نتيجة مجهودات أهل هذين المصرين، بالإضافة إلى البحرين التى انطلق منها المسلمون لغزو فارس وكرمان وكان أول ذلك عمل العلاء الحضرمي. فى مغامرته التى عضده فيها أهل البصرة فى طاووس[3]، ثم فى موقعة أصطخر التى تولاها الحكم بن العاص أواخر عهد عمر، وتمخض عنها فتح كرمان[4].

---

(١) الطبرى ١/٥/٢٤٣٤.

(٢) الطبرى ١/٥/٣٥٣٨.

(٣) الطبرى ١/٥/٢٥٤٥.

(٤) الطبرى ١/٥/٢٦٩٨.

وأسهمت الكوفة فى إخضاع الجزيرة التى كانت بمثابة قاعدة حربية لحلفاء الروم من نصارى العرب، مما رفه عن المجاهدين فى الشام[١]. وتتابعت فتوح أهل الكوفة، ففتحوا الرى وأذربيجان وأرمينية، وطبرستان، وجرجان[٢]. بينما فتح أهل البصرة الأهواز وتستر ورامهرمز، وجند يسابور[٣].

وليس يعنى استقرار الجند الإسلامى فى هذين المصرين وفتحهما لهذه المناطق انتهاء المقاومة الفارسية الرسمية، فإن المنهزمين فى المدائن فروا إلى جلولاء، وأزمعوا أن يستميتوا فى درء المسلمين والتفانى فى ذلك، فاحتفروا خندقا حول جلولاء، أحاطوه بحسك الخشب والحديد، وقاموا ينتظرون المسلمين، وأمر عمر سعدا بأن يسرح إليهم هاشم بن عتبة بن أبى وقاس، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو. فسار هاشم فى اثنى عشر ألفا حتى نزل على الفرس. وكان كسرى قد أمد قواته من حلوان بالأموال والرجال. وأحاط المسلمون بالحصن، وزاحفوا الفرس ثمانين زحفا لم تسفر عن شيء، إلى أن اقتحم المسلمون الحصن فى هجوم عارم، ترك الفرس بعده المدينة للمسلمين[٤].

وبعد أن فر الفرس أرسل هاشم بالقعقاع على رأس حملة إلى حلوان، على حافة المرتفعات الفارسية بجبال الصقر[٤] تتبع الفارين واحتلها، بعد أن فر يزدجرد إلى الري[٥].

وأخذ سعد يبسط راية الإسلام فى أنحاء الجزيرة وفارس، فوجه عبدالله بن المعتم إلى تكريت بالجزيرة، فاستمال من بها من إياد وتغلب، والنمر، ووجه بضرار بن الخطاب إلى ماسبذان، حيث كان آذين أحد عظماء فارس قد جمع جمعا عظيما من الفرس والعرب وخرج بهم إلى السهل، وتمكن ضرار من قتله، والاستيلاء على الناحية[٦].

---

(١) ياقوت ج٢ ص٧٤.
(٢) الطبرى ١/ ٥/ ٢٨٠٥، ٢٨٣٦.
(٣) الطبرى ١/ ٥/ ٣٥٣٤.
(٤) الطبرى ج٥ / ٢٤٧٢.
(٥) فيليب حتى وآخرون ص٢١٢.
(٦) ياقوت ج٤ ص٣٩٣.

كما أرسل عمرو بن مالك الزهرى إلى «هيت» و«قرقيسيا» فاضطر أهلهما إلى النزول على الجزية[1]. وبهذا صار السواد كله بيد المسلمين، فمهدوا طرق إدارته، وأقاموا الجند مرابطة فى الثغور بينهم وبين الجبال.

وبعد سقوط السواد، وهزيمة الفرس فى جلولاء، انهارت خطوط المقاومة الفارسية إلا أن بقاء يزدجرد ــ ذلك الملك الشاب ــ كان لا يزال رمزا حيا للوطن السليب، فجمع حوله الفلول، وعلى الرغم من أن الخليفة كان يرى الاقتصار على ما بيد المسلمين من سواد العراق، ويتمنى لو كان بين السواد والجبل سد يفصل بين العرب والفرس، فإن المسلمين لم يجدوا بدا من مطاردة هذا الرمز، فظلوا يتعقبون يزدجرد، لأنه الذى يبعث المقاومة. . «ولن يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا، فلنسح فى بلادهم حتى نزيله عن فارس، ونخرجه عن مملكته وزعامته، فينقطع رجاء أهل فارس»[2].

وكان يزدجرد قد فر من حلوان، أمام هاشم بن عتبة إلى إقليم فارس، جنوبى إيران، حيث تحول إلى الرى ومنها إلى قرميسين، يطارده المسلمون حتى استقر فى نهاوند. وفى نهاوند كان اهتمام عمر أشد من اهتمامه بالقادسية، حتى لقد راودته نفسه الخروج إليها، ولكن المسلمين رأوا له خلاف ما رأى لنفسه. وكذلك كان اهتمام الفرس بها عظيما، إذ كتب يزدجرد إلى عماله، فاجتمع من الفرس من أهل الجبال ــ من بين الباب إلى حلوان ــ ثلاثون ألف مقاتل، ومن بين سجستان إلى فارس وحلوان ستون ألفا، ومن بين خراسان إلى حلوان ستون ألفا أخر. واجتمعوا جميعا إلى الفيرزان[3].

وتحصن الفرس بالحصون والخنادق. وكان على المسلمين النعمان بن مقرن، الذى عقد مؤتمرا عسكريا للتشاور فى أمر الحرب، شهده أبطال المسلمين كالقعقاع وطليحة وعمرو بن معد يكرب وغيرهم. وانتهى الرأى إلى أن يبدأ القعقاع القتال حتى يخرج إليه الفرس من حصونهم وخنادقهم فيقتلهم المسلمون. وتم هذا الترتيب الحربى كما قدر له. وبدأ القتال واشتد، وقتل قائد المسلمين، وأخفى خبر استشهاده، واستلم حذيفة بن اليمان الراية، وما أتى المساء حتى أتت معه الهزيمة للفرس، ودخل المسلمون نهاوند واحتووا ما حولها.

(١) ياقوت ج٢ ص٦٥.

(٢) الطبرى ١/٥/٢٥٥١.

(٣) الطبرى ١/٥/٢٦٠٨.

وقد سميت هذه الموقعة بفتح الفتوح، لأنه لم يكن بعدها كبير حرب، وتابع القعقاع المنهزمين حتى همذان، فاحتواها وملكها المسلمون[1].

وقد وضع سقوط نهاوند بعد كل هذا الحشد الذى حشده الفرس نهاية للمقاومة الفارسية الرسمية، وأصبحت المقاومة جهودا فردية، يقوم بها حكام المقاطعات فى غير تساند أو نظام لحماية «يزدجرد» فحسب. وعملا بنصيحة الأحنف بن قيس فى وجوب القضاء على يزدجرد أذن عمر للمسلمين بالانسياح فى بلاد الفرس لقطع دابر الشغب، حتى ييئس الملك من عودة ملكه إليه، فلا يظل شوكة فى جنب المسلمين، وييئس الفرس فلا يجتمعون حوله.

عين عمر رؤساء الجند لافتتاح فارس، وأرسل إليهم بالألوية، الأحنف بن قيس إلى خراسان، وعثمان بن أبى العاص الثقفى إلى أصطخر، وسارية بن زنيم الكنانى إلى فاسودراخرد، وسهيل بن عدى إلى كرمان، وعاصم بن عمرو التميمى إلى سجستان، والحكم بن عمير التغلبى إلى مكران.

وكان يزدجرد قد لجأ إلى أصفهان من نهاوند، فتابع المسلمون تقدمهم حتى غلبوا عليها. فكان أن تحدر هو إلى أصطخر[2]، ولكنها لم تكن الملجأ الحصين، إذ كان المسلمون يتقدمون من البصرة إلى الأهواز وخوزستان، ويقفزون من البحرين إلى الشاطئ الشرقى المقابل للخليج الفارسى، فغادر يزدجرد أصطخر إلى المقاطعات العليا من طبرستان، يلبى دعوة جاءته من مرزبانها[3].

وبعد أن يحتل المسلمون أصطخر ينساحون فى مواطن متفرقة عن إذن عمر. وتترى مدن خراسان تتساقط فى يدى الأحنف.. الطبسين.. فهراء.. فمرو الشاهجان.. فنيسابور. ثم يهرب يزدجرد إلى خاقان، ملك الترك فيما وراء النهر[4].

ولا يلبث ولاء أمراء المقاطعات ليزدجرد أن يتناقص بازدياد تفكيرهم فى مطامعهم الشخصية، والرغبة فى الاحتفاظ بنفودهم. وبعد سلسلة طويلة من التنقلات يقتل يزدجرد فى مرو، وبقتله يسقط التاج الساسانى إلى الأبد.

---

(١) ياقوت ج٤ ص٨٣٨.

(٢) الطبرى ١/ ٥/ ٢٥٦٢.

(٣) بروكلمان/ تاريخ الشعوب الإسلامية ص١٢٦.

(٤) ياقوت ج٤ ص٤٠٩.

وكان المسلمون قد بلغوا فى تتبعهم ليزدجرد إلى حدود النهر، فكتب عمر إلى الأحنف بطل هذه الوثبة بألا يجوز النهر، وبأن يقتصر على ما دونه[1]، ولكن انسياح المسلمين لم يتوقف، لأن انتقاض البلدان والمناطق المفتوحة لم يتوقف هو الآخر، فلم يبق إقليم لم ينتقض بعد فتحه، وبخاصة فى أطراف المنطقة الشرقية بخراسان، التى اشتد انتقاضها وكفرها فى خلافة عثمان[2].

وفى الوقت الذى كان فيه المسلمون يستشرفون نهر جيحون كانت جيوش أخرى تجوز الخليج الفارسى، لتنساح فى منطقة فارس وسواحل كرمان، ثم تتقدم بعد ذلك إلى مكران، حتى تبلغ قريبا من السند. ويذكر أن عمر كان قد أوصى بألا يتقدم المسلمون إلى كرمان، بعد أن أخبره صحار العبدى بسوئها.. ولكن الحكم بن عمير التغلبى يتقدم إليها ويجوزها. وتوالت ظروف الانتقاض والثورة، فلم يستطع المسلمون الإذعان لهذا الأمر ولم يقنعوا بما فى أيديهم.

وتكاد تذهب خلافة عثمان رضى الله عنه كلها فى محاولة تأكيد الفتح الإسلامى، والمحافظة على الثغور وإعادة من شق العصا إلى الطاعة، إذا ما استثنينا فتح طبرستان، الذى تم على يد سعيد بن أبى العاص سنة ٢٩هـ. فهذه أذربيجان تنتقض فى إمارة الوليد ابن عقبة سنة ٢٥هـ فيغزوها ويعيدها إلى ما كانت عليه[3]. وهذه فارس تنتقض فى ولاية عبدالله بن عامر على البصرة، ويقتل أهلها أميرهم عبيد الله بن معمر، فيسير إليهم عبدالله ابن عامر ويستردها[4].

وأخذ المسلمون يتدفقون لاستثمار انتصاراتهم فى خراسان، معبرين عن مدى الانطلاق الروحى، راغبين فى القضاء على المقاومات والانتقاضات. فأخذنا نسمع عن أول من عبر النهر، كعبد الله بن عامر والحكم بن عمرو الغفارى وسعيد بن عثمان، الذى ولاه معاوية خراسان[5]. إلى أن يستكمل فتح هذه المنطقة قتيبة بن مسلم.

---

(١) الطبرى ١/٥/٢٦٨٥.

(٢) الطبرى ١/٥/٢٦٨٩.

(٣) ياقوت ج١ ص١٧٣.

(٤) ياقوت ج٢ ص٤١٢.

(٥) البلاذرى ص٤٠٨، ٤١٢.

وهكذا تصير إلى العرب تلك المنطقة، التى يحدها من الغرب نهر الفرات، ومن الشرق نهر جيحون والسند، ومن الجنوب المحيط الهندى، ومن الشمال أرمينية وطبرستان فى فترة وجيزة من الزمن. برغم أن مثل هذه الأعمال العظيمة لا تقاس بالفترات ولا بالسنين.

وقد رافق الشعر المسلمين فى تقدمهم خطوة بخطوة، طوال هذا الطريق المشرق، وواكب المد المنطلق إلى غايته، كما سنرى فيما بعد.

٣ ـ فتوح الشام

كان لموقع شبه الجزيرة العربية وعلاقات الجوار واللغة والقرابة والدم التى ربطت بين عرب الجزيرة والقبائل الضاربة فى شمالها أكبر الأثر فى اتجاه المسلمين فى انطلاقهم إلى بطائح العراق، وإلى مشارف الشام بعد ذلك. وهذه العلاقات قديمة وبعيدة وموغلة فى التاريخ، وترجع إلى ذلك اليوم الذى بسط فيه عرب الجنوب نفوذهم على التجارة على طول شواطئ البحر المتوسط الشرقية، وعن طريق سلسلة من المحطات التجارية المنتشرة من اليمن إلى الشام. وكانت سيطرة العرب على المتاجر سببا فى خلق علاقات وثيقة بين العرب والقوى السياسية المحيطة بهم وقتئذ. فبدأ تنافس خطير حول انتزاع هذه السيادة التجارية منهم، واستبقائها فيما بينهم وبين الروم فحسب، عندما بسط هؤلاء سلطانهم على البحر المتوسط بالاستيلاء على مصر.

وكانت محاولات الروم فى هذا السبيل تصاب بالفشل حتى القرن الخامس الميلادى، ولم يجدوا فرصتهم إلا فى عهد الإمبراطور جوستنيان، (٥١٨ ــ ٥٢٧م) عندما سيطرت فارس على الطرق التجارية البرية، مما دفعهم إلى التدخل فى شئون عرب الجنوب، متذرعين بالصراع الدينى، الذى نشب بين اليهودية والمسيحية فى عهد ذى نواس، وأتيح لهم التدخل عن طريق أحلافهم الأحباش بعد مذبحة نجران[1]. ولكن العرب استطاعوا القضاء على النفوذ الحبشى الرومى فى عهد سيف بن ذى يزن، الذى استعان بكسرى أنوشروان سنة ٥٧٥م فى طردهم.

---

(١) التيجان فى ملوك حمير/ ص٢٠١.

وأرض الشام تعتبر امتدادا لشمالى شبه الجزيرة العربية، مما دعا عرب الشمال إلى اتخاذها دار هجرة، إذ إن طبيعة بلادهم كانت السبب فى الدفع بهم إلى الاحتكاك بمن يصاقبونهم، والزحف وراء المناطق الخصبة التى تلى بلادهم شمالا على أطراف الهلال الخصيب، انتهازا للإغارة على بلدانه والتسلل إليها، حيث ينعمون بالخصب والخير، فلم تكن الهجرات إلى الشام تنقطع عبر الزمن. وأشهر هذه الهجرات ما حدث بعد زوال السيطرة التجارية لليمن، إذ ساءت أحوالها الاقتصادية، وتلا ذلك تصدع سد مأرب العظيم، فاتجهت القبائل المهاجرة تزحف إلى الشام، كما فعلت جهينة وكلب وقضاعة التى نزلت بالبادية، وعاملة وجذام اللتان نزلتا فى حدود فلسطين، وغسان التى استقرت فى منطقة حوران فى شمال بلاد العرب.

ورأى الروم فى هذه القبيلة مثلما رأى الفرس فى لخم، واستعانوا بها فى تأسيس إمارة تضمن لهم الدفاع عن حدودهم ضد هجمات الفرس والقبائل العربية، التى تحترف الإغارة والسلب. واتسمت العلاقة بين الروم والغساسنة بالتأرجح، بسبب عوامل الكبت والتضييق التى انتهجها الروم مع حلفائهم وصنائعهم، إثر إثارة مشكلة الخلاف المذهبى بينهم، فقد اعتنق الغساسنة المذهب المونوفيزيتى، بينما كان سادتهم يدينون بالملكانية، فتعرض غير أمير منهم للسجن والاضطهاد، كما حدث للمنذر بن الحارث الذى غدروا به ونفوه إلى صقلية[1].

وكانت إمارة الغساسنة معبرا لكثير من التأثيرات العقلية والحضارية، عبرت عن طريقها إلى العرب، ووفد إليها من شعرائهم فى الجاهلية من كانوا يجدون فى أمرائها أهلا لمدائحهم ومنادمتهم، كالنابغة الذبيانى وعلقمة، وحسان بن ثابت. وترك هؤلاء الأمراء فى الأدب العربى فضلا عن هذا آثارا قصصية وأسطورية، كالتى تروى عن دروع امرئ القيس، ومنادمات حسان لجبلة بن الأيهم وغير ذلك.

وعندما تبلورت زعامة مكة لشبه الجزيرة العربية، وتبوأت مركز الصدارة على سائر مدن الحجاز، وسيطرت على مقدراتها، واستحقت لقب أم القرى ببيتها العتيق الذى يفد إليه كل العرب من كل صوب أخذت مكة تنظم التجارة، وتستعيد للعرب السيطرة على

(١) امرأة غسان ص٣١، ٣٢.

طرقها بين اليمن والشام. فنظم هاشم رحلاتها، وعقد مع الدول والممالك المجاورة للحجاز معاهدات ومحالفات، كتلك التى عقدها مع الروم والغساسنة، وأصبح لقريش بمقتضاها حق التجوال فى الشام[1]. وبطبيعة الحال أفاد العرب من هذه الصلات التجارية الشيء الكثير. ولا بد أن يكون منهم من ثقف لغة عملائهم بالضرورة، فقد كان التجار من رؤساء العرب وكبرائهم، وأجدرهم بنقل مدنية الروم وحضارتهم وطرق معيشتهم وأخبارهم.

ولما بدأ الصراع بين دولتى الفرس والروم فى مستهل القرن السابع الميلادى كان العرب يتابعون أحداث هذا الصراع المرير وتطوراته، وظهور إحداهما على الأخرى. وملأت أصداء هذه الأحداث بلاد العرب بفضل الطريق التجارى، الممتد بين اليمن وفلسطين وسوريا ومصر. فكان العرب يقفون على أخبارها أولا بأول. وأخذ المسلمون يظهرون أمام المشركين الذين كانوا يقفون بعواطفهم إلى جانب الفرس الوثنيين ضد الروم بوصفهم أصحاب كتاب كالمسلمين بمظهر الآمل فى انتصار الروم، وأنهم المظفرون فى هذا الصراع عما قريب.

ولم تكن أنباء الصراع هى كل ما يثير اهتمام المسلمين، وإنما يبدو أنهم كانوا يقفون أيضا على حوادث الاضطهاد والتعذيب التى أخذت ترزح تحتها البلدان الخاضعة لحكم الروم، من جراء فرض «هرقل» مذهبه الجديد، الذى يدعو إلى التوفيق بين الملكانيين واليعاقبة، محاولا بشتى الوسائل حمل رعاياه عليه، ليقضى على عوامل الفرقة المذهبية التى كان يخشى اتخاذها ذريعة للانفصال عن جسم الدولة الرومية، ولكن النتيجة كانت عكس ما تصور «هرقل».

فوقف أتباع المذهبين المختلفين موقفا واحدا ضده، ورفضوا الدخول فى مذهبه الذى عدوه زيفا وتضليلا، فاشتعلت نيران الفتنة. وانتشرت حركات التمرد والمقاومة السرية. ولم يتمكن هرقل من إخمادها بوسائل العنف والقهر والقمع، وبات الناس فى أقاليم الدولة يتمنون من أعماقهم زوال حكم الروم عنهم، ليحرروا عقائدهم وأرزاقهم من قهرهم.

(١) الطبرى ج٣ ص١٠٨٩.

وفى هذا الوقت كان النبى العربى ﷺ ينشر دعوته فى بلاد العرب، داعيا إلى الوحدة والإخاء والمساواة. ولم ينظر الروم إلى الحركة الإسلامية نظرة جدية، وساعد هذا على أن الروم خرجوا من صراعهم مع الفرس معتدين بأنفسهم اعتدادا كبيرا، فلم يحاولوا أن يفهموا مدى الأثر الذى أحدثه الدين الجديد فى العرب، فى حين كان هؤلاء يتربصون بهم وبأخبارهم التى تجيئهم مع القوافل، وعن طريق محطات التجارة، ومع التجار المسيحيين واليهود والعرب[1].

ويبدو أن الرسول ﷺ وجد فى هذا الخلاف المذهبى مشجعا له على أن يرسل برسائله إلى «هرقل» و«المقوقس» يدعوهما إلى الإسلام، ذلك الدين الذى يدعو إلى عقيدة جوهرها وحدانية الله، جعلته أقرب إلى نفوس أتباع الطبيعة الواحدة المسيحيين من قربه إلى نفوس الروم قادة العالم المسيحى، المعتنقين لمذهب الطبيعتين[2]. ومما لا شك فيه أن هذا يفسر السرعة والنجاح اللذين تمت بهما فتوح الشام، ووقوف دولة الروم مذهولة حيال تدفق تيارها العنيد إذا ما قورنت بفتوح العراق وفارس، إذ إن العقيدة الإسلامية كانت النور الذى أضاء للجيوش الإسلامية سبيلها فى بلاد المونوفيزيتين، ونزلت بردا وسلاما على سكانها، وسط جحيم اضطهاد الروم الملكانيين[3].

ولم يحسن الروم الرد على دعوة النبى ﷺ، وفعل صنائعهم الغساسنة مثل صنيعهم وأنكى، فقتل أميرهم شرحبيل بن عمر رسول النبى ﷺ إليه فى بصرى، ولم يكن المسلمون فى حالة تسمح لهم برد هذه الإهانة. وانتظر النبى ﷺ حتى السنة الثامنة للهجرة وأرسل زيد بن حارثة فى بعث مكون من ثلاثة آلاف رجل إلى الجهات الشمالية الغربية من بلاد العرب[4].

ولم يكن هدف هذا البعث الرد على إهانة المسلمين أو الثأر فحسب، وإنما كان الغرض إلى جانب ذلك تأمين التخوم العربية ضد الروم، الذين تأثروا بتحريض اليهود،

---

(١) الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص٤٢.

(٢) يدل على هذا... دفاع الإسلام عن عيسى عليه السلام وتنزيهه عما يجيبه إلى المونوفيزيتين، وما جرى بين نجاشى الحبسة ومسلمى الحجار فى الهجرة الأولى.

(٣) الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص٤٢.

(٤) الطبرى ١/٣/١٦١٠.

بعد أن أجلاهم النبى ﷺ عن المدينة وعن تيماء وفدك إلى فلسطين، فأراد النبى ﷺ بهذا البعث أن يهدد مشارف الإمبراطورية، ليحسب الروم حسابا للمسلمين. كما كان هناك هدف آخر هو الاستطلاع بالوصول إلى مآب، كما يظهر فى قول عبدالله بن رواحة إذ يقول:

فلا وأبى مآب لآتينها وإن كانت بها عرب وروم[1]

وسار المسلمون إلى مؤتة، وبيناهم فى الطريق دنا منهم الروم عند مشارف وهى قرية من قرى البلقاء، فانحازوا إلى مؤتة، وكان الروم فى أعداد غفيرة، فأراد المسلمون أن يكاتبوا النبى ﷺ فيما يتهددهم، فنهاهم عبدالله بن رواحة وقال: إنها الشهادة أو الطعن[2].

والتقى المسلمون بالروم، فاستشهد زيد بن حارثة، وجعفر بن أبى طالب، وعبدالله ابن رواحة. وداور خالد بن الوليد بالمسلمين حتى قدم إلى المدينة[3].

وبدا بعد ذلك أن النبى ﷺ سيعاود الكرة، فتضاعفت الرغبة فى الثأر، وقوبل بعث موتة من المسلمين باستياء بالغ، وجعل الصبيان يحثون التراب عليهم ويصيحون: يا فرار.. فررتم من سبيل الله، فيقول النبي ﷺ: ليسوا بالفرار، لكنهم الكرار إن شاء الله[4].

وفى العام التالى لبعث موتة سار ﷺ بنفسه على رأس المسلمين إلى الحدود العربية الرومية، حيث قام هناك بمناورات حربية لم تحدث فيها اشتباكات، إذ اكتفى فيها بإظهار قوة المسلمين فى هذه الجهات[5] وتراجع الروم دون قتال، وأصاب المسلمون بعض الواحات التى صالحوا عليها، كصلح النبى ﷺ مع أهل جرباء وأذرح، ومع صاحب أيلة. وأرسل خالد بن الوليد فصالح أكيدر صاحب دومة الجندل على الجزية[6] فلا عجب ــ وقد أثارت هاتان الغزوتان الثارات بين المسلمين والروم ــ أن يجهز النبى ﷺ جيش أسامة

(١) معجم البلدان ج٤ ص٥٧١.
(٢) نفس المرجع والصحيفة.
(٣) ابن هشام ج٣ ص٢١١، ٢١٥.
(٤) ياقوت ج٤ ص٦٧٧.
(٥) ابن هشام ج٢ ص٣٢٨ - ٣٣٨.
(٦) الطبرى ١/٤/١٧٠٢.

ابن زيد بن حارثة، وأن يكون تجهيز هذا الجيش بعض سياسته فى تأمين تخوم شبه الجزيرة من الروم، وكان أسامة حدثا لما يبلغ العشرين، وإنما ولاه رسول الله ليجعل له من فخار النصر ما يجزى به استشهاد أبيه بمؤتة. ولقد أمره النبى ﷺ أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه فى عماية الصبح، وأن يمعن فيهم قتلا، وأن يحرقهم بالنار، وأن يتم ذلك دراكا، حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه، فإذا تم له النصر فليسرع بالعودة غانما مظفرا. غير أن النبى ﷺ يلحق بربه قبل أن يجاوز جيش أسامة الخندق[1].

وهكذا يمضى النبى ﷺ مخلفا للمسلمين خطة واضحة المعالم. ورغم ظروف ارتداد المسلمين، وحديث الناس إلى أبى بكر بألا يفرق عنه جماعة المسلمين، الذين يشملهم الجيش فى مثل هذه الظروف فإنه يعتزم إنفاذ جيش أسامة ولو تخطفته السباع، ولو لم يبق فى القرى غيره[2]. ويمضى أسامة فيغزو قبائل قضاعة، ويغير على آبل، ويعود غانما فى أربعين يوما، سوى مقامه ومنقلبه[3].

وهكذا يبدو أن الرسول ﷺ هو الذى رسم بنفسه خطة التمهيد للدعوة فى بلاد الشام، وأنه قد أدرك بثاقب نظره أن أشد الخطر يكمن فى الشام ويتهدد الدعوة، حيث الروم وعمالهم، فكان إدراكه عين الحقيقة، فلم يكن إرسال مولى الرسول ﷺ إلا ليدلهم، وما كان سيره إليهم بنفسه وإرساله أسامة إلا لفتا إلى هذا الخطر، وإظهارا لقوة المسلمين فى هذه الأنحاء، ليقضى على هيبة الروم فى نفوس صنائعهم، وليكسر خطوط المقاومة الأولى فى طريق الدعوة، وليثير فى نفوس المسلمين نوازع القوة الكامنة. وبرغم أن أسامة لم يلق جيش الروم، إذ اكتفى بأن دهم القبائل وغنم منها فإن هذه الغزوة كانت بعيدة الأثر فى حياة المسلمين، وفى حياة العرب الذين فكروا فى الثورة بهم، وفى حياة الروم الذين تمتد بلادهم على حدودهم، حتى ليبعث هرقل بجيش قوى يعسكر بالبلقاء. وبرغم هذا كله لم يدر بخاطر أحد من أمراء الجيش الظافر أن يدفع أسامة لاقتفاء أثر عدوه، ذلك أن السياسة التى جرى عليها رسول الله ﷺ، والتى كانت ماثلة فى نفوس المسلمين جميعا

(١) ابن هشام ج٢ ص٤٥٢- ٤٥٣.
(٢) الطبرى ١/ ٤/ ١٨٤٨.
(٣) الطبرى ١/ ٤/ ١٨٥١.

كانت تقف عند تأمين التخوم العربية، حتى لا يحدث الروم أنفسهم بغزو العرب انتقاما لليهود الذين كانوا يأتمرون بالمسلمين. فكان طبيعيا إذن أن يكرّ أسامة راجعا إلى المدينة، دون أن يدور غزو الروم بخاطره. ولكن الانتصار الذى حققه أسامة كان له أثر بعيد فى اعتزاز المسلمين بأنفسهم، وإكبارهم للذين حققوه. حتى ليصبح لانتصار أسامة هذا من الخطر مالا يتفق مع قيمته الحقة، بل عد فيما بعد فاتحة للحملة التى وجهت لغزو الشام[1].

أما فيما قبل فتح الشام فلم يكن له هذا الخطر ذاته، إذ اتبع أبو بكر سياسة النبى ﷺ، فهو متبع لا يدع أمرا رأى رسول الله ﷺ يصنعه إلا صنعه؛ ولذا كانت وصيه لأسامة أن يصنع ما أمره به نبى الله ﷺ، ولا يقصرن فى شيء مما أمره.

وقد مر بنا أن أبا بكر كان يرى التفكير فى حرب الشام بعد انتهاء فتنة الردة أهون من حرب الفرس، فمنذ بدأت طلائع النصر تساير أعلام المسلمين فى حرب الردة كان التفكير فى حرب الروم يتردد على خاطر أبى بكر، لكنه كان يخشى إبرام هذا الأمر قبل الفراغ من المرتدين، خشية انتقاض العرب عليه. فلما هون المثنى أمر العراق، وانطلق خالد بن الوليد يكتسح أمامه الفرس وأهل البادية، ويضع يده على الحيرة ويتخذها عاصمة للمسلمين، ازداد تفكير أبى بكر فى أمر الشام، وبخاصة بعد أن سلمت دومة الجندل وفتحت أبوابها للمسلمين. وكما كان بدء فتح العراق نتيجة للجهود التى بذلها بعض قادة المسلمين فى حروب الردة كالمثنى كان نفس الأمر فى فتح الشام، فإن خالد بن سعيد بن العاص ـــ الذى كان ردءا بتيماء على تخوم الشام ـ دعا إليه القبائل بأمر أبى بكر، فاجتمعت إليه جموع كثيرة جعلت عسكره عظيما[2]، وترامت إلى هرقل أنباء هذه الجموع، فاتخذ للأمر عدته. وترامت إلى خالد بن سعيد أنباء استعدادات هرقل، فبعث بها إلى الخليفة مشفوعة برأيه أن يأذن له فى منازلة الروم ومن انضم إليهم من قبائل العرب، مخافة أن يأخذوه ومن معه على غرة.

وعقد أبو بكر مؤتمرا دعا إليه جلة أصحابه وأهل الرأى للتداول فى هذا الأمر، وطال النظر فى الأمر والتشاور، حتى استقر الرأى على الغزو والتجهز له، وأن يستعين الخليفة بأهل اليمن وأهل شبه الجزيرة جميعا. وكتب الخليفة إلى أهل اليمن وإلى عماله فى

(١) فكار/دائرة المعارف الإسلامية، فصل أسامة.

(٢) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٨١.

أنحاء شبه الجزيرة، فلقيت دعوته آذانا صاغية، وخفوا يطلبون المدينة. وبينما أبو بكر يعد جيوشه تسلم كتابا آخر من خالد بن سعيد باجتماع الروم ومن نفر إليهم من بهراء وكلب وتنوخ ولخم وجزام وغسان، فكان رد الخليفة: أن أقدم ولا تحجم واستنصر الله.

فأسرع خالد بكل قوته وتخطى الحدود لمنازلة القوم. ولم يلبث الروم وأنصارهم حين رأوه دنا منهم أن تفرقوا وتركوا منازلهم، فدخل معسكرهم وغنم ما فيه، وكتب إلى الخليفة بما صنع. فأجابه بأن يتقدم وبألا يقتحم، حتى لا يؤتى من خلفه. وتقدم خالد حتى بلغ القسطل فى طريق البحر الميت. وهزم جيشا من الروم على الشاطئ الشرقى لذلك البحر، ثم تابع مسيره. وثارت حمية الروم، كما ثارت حمية أهل الشام، فتجمعوا فى أعداد عظيمة[1]. وفى هذا الوقت كان أبو بكر يبعث إلى عماله يخبرهم بين العمالة والجهاد، فآثروا الجهاد كعمرو بن العاص والوليد بن عقبة، وندبوا الناس معهم. وكان عكرمة بن أبى جهل قد قدم قافلا من كندة وحضرموت، فما إن بلغ المدينة حتى أمره أبو بكر أن يسير مددا لخالد بن سعيد، وكذلك سار الوليد بن عقبة فأدرك خالدا، وتقدم معه لمقابلة الروم[2].

وكان على جيش الروم القائد الأكبر باهان، الذى خدع المسلمين وتراجع أمامهم حتى مرج الصفر، ثم استدار فأحاط بهم وقتل سعيد بن خالد، واضطر خالد إلى الفرار، تاركا عكرمة يقود الجيش متقهقرا به إلى حدود الشام، حيث تحصن وأقام ينتظر المدد. ورأى أبو بكر أن يزيل هذه الهزيمة، وأن يرد المسلمين إلى الإيمان بالنصر، ويمدهم بما ينزل فى قلوب الروم الخوف والهلع. واهتاج أبو بكر لفتح الشام وعناه أمره[3]، فوجه بشرحبيل بن حسنة، الذى كان قافلا من العراق بأنباء النصر، وأمره بالشام فجمع قوة من جيش ابن سعيد وابن عقبة، وسار بها إلى عكرمة[4]. ودعا أبو بكر يزيد بن أبى سفيان، وأمره على جند، وأردفه بأخيه معاوية، فسارا وفصلا ببعض جيش ابن سعيد[5]. وندب الخليفة جيشا عظيما عليه أبو عبيدة بن الجراح، وأمره على حمص، وسمى الخليفة لكل قائد مكانا،

(١) هيكل، الصديق، ص٢٦٢.
(٢) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٨٤.
(٣) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٨٢.
(٤) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٨٥.
(٥) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٨٥.

فليزيد بن أبى سفيان دمشق، ولشرحبيل الأردن، ولعمرو بن العاص فلسطين، وانطلقت الجيوش فى طريقها إلى الشام. وكان أبو بكر باهتياجه للشام على هذا النحو يعزز انتصارات المسلمين بالعراق، فلو وقف أمر المسلمين عند هزيمة خالد لذهب نصرهم فى العراق بددا، ولاقتحم عليهم الروم بلادهم. وظل المسلمون فى مسيرهم حتى نزلوا الشام. وكان عمرو بن العاص معسكرا فى العربة، وتخطى أبو عبيدة البلقاء إلى الجابية، بعد أن خضع له عرب مآب. ونزل شرحبيل الأردن، بينما نزل يزيد البلقاء. وقد اختلفت الروايات، ألقى المسلمون حربا فى جنوبى فلسطين، أم تقدموا فيها ولم يواجههم أحد؟ وتلتقى جيوش المسلمين بجيوش عكرمة، ليعسكر أبو عبيدة على طريق دمشق، ويعسكر شرحبيل فى مرتفع بأعلى الغور، فوق طبرية ونهر الأردن، ويظل يزيد بالبلقاء مهددا بصرى، ويبقى عمرو بالعربة[٢]. وعندئذ أدرك الروم الذين لم يعبئوا بالمسلمين بعدما انهزمو وفر خالد أن الأمر أجل خطرا من أن يستهينوا به. فسير هرقل قوات عظيمة وقفت إزاء جيوش المسلمين، حتى يشغل كلا منها عن غيرها فيسهل التغلب عليهم. فعسكر جيش بقيادة تذارق أخى هرقل بإزاء عمرو. ووقف جيش بإمارة الفيقار بن نسطوس بإزاء أبى عبيدة. أما شرحبيل فاستقبل الداراقص على قوة من الروم، واستقبل جرجه جيش يزيد بن أبى سفيان[٣].

هاب المسلمون جيوش الروم حين رأوها يخطئها العد، ففزعوا بالكتب والرسل إلى عمرو بن العاص يلتمسون عنده الرأى، ورأى عمرو أنهم لا يستطيعون لقاء الروم متفرقين، فكاتبهم يقول: (إن الرأى الاجتماع، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة، فأما إن تفرقنا لم تقم كل فرقة لمن استقبلها لكثرة عدونا). وجاءهم كتاب أبى بكر بمثل رأى عمرو، وفيه: (اجتمعوا عسكر واحدا، والقوا زحف المشركين بزحفكم، فأنتم أعوان الله، والله ناصر من نصره...)[٤]. واتعد المسلمون اليرموك على طريق دمشق، واجتمعت قواتهم كلها على شاطئه الأيسر. فلما رأى الروم ذلك جمعوا قواتهم على الشاطئ الأيمن للنهر، وتولى تذارق (تيودوريك) قيادتها.

---

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٩٠.

(٢) هيكل، الصديق، ص١٠٦٧.

(٣) نفس المرجع ص٢٦٨.

(٤) الطبرى ١/٤/٢٠٩٠، و١/٤/٢٠٨٧.

ونهر اليرموك ينحدر سريعا بين آكام مختلفة الارتفاع إلى غور الأردن وإلى البحر الميت، وعلى مرحلة من ملتقى اليرموك بنهر الأردن تقع واقوصة فى منبطح فسيح من الأرض، تحيط به من ثلاث نواح جبال بالغة الارتفاع. وقد اختار الروم هذا المنبطح معسكرا لهم، فلما استقروا به تخطى المسلمون النهر إلى ضفته اليمنى، واختاروا منبطحا آخر على الطريق المفتوح لجيش الروم. فلم يبق للروم طريق إلا عليهم. وأقام المسلمون برغم هذا لا يقدرون على شيء، ولا يقدر الروم منهم على شيء شهرين كاملين. ورأى المسلمون ألا بد لهم من مدد يعينهم، فكتبوا إلى أبى بكر يستمدونه حتى لا يسأم الجند ويضعف إيمانهم بالنصر. وجمع أبو بكر أولى الرأى من صحابة الرسول ﷺ متعجبا أن يقف المسلمون هذا الموقف من الروم على كثرتهم، وتكشفت الحقيقة: أن العلة فى القيادة، فالموقف يحتاج إلى قائد جسور وأبو عبيدة رقيق القلب، وابن العاص على دهائه غير مقدام، وعكرمة مناور مقدام ينقصه دقة التقدير. ثم إن كثرة الأمراء تجعلهم لا يقرون لواحد منهم بالتفوق، فإذا بأبى بكر يصيب كبد الحقيقة إذ يقول: «والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد»[1].

وكتب أبو بكر إلى خالد إثر عودته من الحج: «سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك، فإنهم قد شجوا وأشجوا»[2]. وأخذ خالد يتدبر أمره، فتقاسم الجند مع المثنى كأمر أبى بكر، ثم اجتاز طريقا موحشا بطريقة فذة وفى أيام قليلة، وتمكن من إصابة بعض الواحات والقبائل فى طريقه، كما استطاع بمعونة دليله رافع الطائى أن يختصر الطريق، وأن يقضى على مشكلة الإمدادات وخاصة توفير الماء فيما يشبه المعجزة[3]، ويدخل عمله فى إطار الأسطورة. وقد تجنب خالد أن يلتقى بالروم حتى يبلغ جيوش المسلمين. وأغار فى طريقه على سوى وتدمر، وصالح أهل قصم وانحدر إلى أذرعات فأغار على غسان بمرج راهط، ثم سار حتى نزل على قناة بصرى، وعليها أبو عبيدة وشرحبيل ويزيد فتقدمهم خالد واقتحموا بصرى وفتحها الله عليهم، ثم ساروا جميعا إلى فلسطين مددا لعمرو بن العاص، فعسكر خالد بجنوده إلى جوار زملائه، واكتمل جمع المسلمين على اليرموك.

---

(١) الطبرى ١/ ٤/ ٢١٠٨.

(٢) الطبرى ١/ ٤/ ٢١١٠.

(٣) الطبرى ١/ ٤/ ٢١٠٨.

وصادف قدوم خالد قدوم باهان، الذى رأى هرقل أن يعزز به جنده. وكان الموقف بالغا غاية الدقة، فعدد المسلمين قليل جدا، بالقياس إلى عدد الروم. وظل الموقف جامدا ثلاثة أسابيع يتدبر المسلمون أمرهم، وترامى إلى المسلمين أن الروم سينازلونهم فى غدهم، وتحدث الأمراء فى شأنهم، ولما آن لخالد أن يتحدث قال: «إن هذا اليوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر والبغي. أخلصوا لله جهادكم، وأريدوا الله بعملكم، فهذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة وأنتم على انتشار»[1] فلما سألوه الرأى، أشار بتعاورهم الإمارة، وطلب أن يتأمر فى اليوم الأول، ولم يترددوا.

عبأ خالد الجيش كراديس كل منها ألف رجل، وجعل على القلب أبا عبيدة، وعلى الميمنة عمرو بن العاص وشرحبيل، وعلى الميسرة يزيد، وجعل على كل كردوس فارسا من شجعان المسلمين كالقعقاع وعكرمة ومن إليهما. وعهد إلى أبى سفيان بتحريض المسلمين وتذكيرهم، فسرت إلى قلوب المسلمين قوة لم يكن لهم بمثلها عهد مذ نزلوا الشام. وتقدم القادة صفوفهم يرتجزون ويخطبون ويتمثلون، وكلهم ينتظر الأمر بالهجوم بصبر نافذ، وعزم ثابت على النصر أو الموت.

فلما صدرت الأوامر من باهان بالزحف كان جرجه بجيشه فى الطليعة، وكان قد تعلم العربية وسمع عن خالد ومال قلبه إليه، فتلقاه خالد وأفسح له ولعسكره طريقا، وظن الروم أن جرجه فى حاجة إلى المدد، فانقضوا على المسلمين فأزاحوهم. وكان عكرمة على كردوسه أمام فسطاط خالد، ورأى تسليم جرجه وارتاح له، فلما رأى صفوف المسلمين تنزاح أمام الروم نادى: من يبايعنى على الموت؟ فبايعه أربعمائة من وجوه المسلمين، واندفع بهم يلقون فيلق الروم فى هجمة رجل واحد، فزلزلوهم كما زلزلهم انضمام جرجه إلى المسلمين، وأيقن المسلمون بالنصر أو الفناء عندما رد الروم هجومهم بأعنف منه. واندفع خالد والمسلمون وراءه يهوون على عدوهم بسيوفهم فيخطفون أرواحهم خطفا، وازداد حماس المسلمين حتى شارك النساء الرجال، واستمات الروم فى دفع المسلمين، وتأرجحت المعركة حامية الوطيس، فلما كانت الشمس فى المغيب بدأت قوات الروم تهن، وكان نهر اليرموك يدور فى الشمال على شكل نصف دائرة، بحيث

---

(١) ياقوت ، ج٤ ص١٠١٥.

يحتضن جنوبى القوس سهلا له باب واحد من الجنوب، فدار خالد خلف جيش الروم وحصرهم فتردوا فى هاوية الواقوصة، وشدد المسلمون الضغط عليهم فتلاحقوا فيها[1].

قضت معركة اليرموك على كل أمل للروم فى استبقاء الشام، فلم يكد هرقل يسمع بهزيمة جيشه حتى جلا عن معسكره بحمص، وجعلها بينه وبين المسلمين، وقال قالته المشهورة: (سلام عليك يا سورية سلاما لا لقاء بعده ونعم البلد للعدو)[2].

ويذهب غير قليل من المؤرخين إلى أن معركة اليرموك كانت بعد أجنادين ودمشق، وأن اليرموك كانت آخر الوقائع. يذهب إلى ذلك الواقدى والبلاذرى والأزدى، مخالفين الطبرى الذى اخترنا روايته. فالواقوصة التى حدثت المعركة عندها قريبة من بادية الشام ومن تخوم العرب، وهى أدنى الأرض إلى جيوش المسلمين حين التقائها. ويؤيد رواية الطبرى ما يرويه ياقوت فى هذه الوقعة من أنها حدثت لعهد أبى بكر، وأن البريد جاء بموته وخلافة عمر، وبتأمير أبى عبيدة على الشام كله، وبعزل خالد، وأخفى الخبر عن المسلمين حتى تم نصرهم. ثم دخل خالد على أبى عبيدة فسلم عليه بالإمارة وأفضى بالخبر[3] ونحن نميل إلى هذه الرواية ونرفض رواية البلاذرى ومن سايره. وليس لنا إلا أن نحتكم فى ذلك إلى الشعر الذى يؤيد وجهة النظر التى اخترنا بدوره، يقول القعقاع بن عمرو ــ وكان ضمن كتيبة خالد ــ مصورا مسيرهم إلى اليرموك:

بدأنا نجمع الصفرين فلم ندع ... لغسان أنفا فوق تلك المناخر

صبيحة صاح الحارثان ومن به ... سوى نفر نجتذهم بالبواتر

وجئنا إلى بصرى وبصرى مقيمة ... فألقت إلينا بالحشا والمعاذر

فضضنا بها أبوابها ثم قابلت ... بنا العيس فى اليرموك جمع العشائر[4]

كتب أبو عبيدة إلى عمر بما تم من نصر المسلمين فى اليرموك، وأنه خلف بشير بن سعد بن أبى الحميرى عليها ليحمى ظهره، وخرج إلى مرج الصفر يتعقب فلول المنهزمين

---

(١) الجغرافيا التاريخية، محمد أحمد حسونة، ص٢٢/ ٣٣.

(٢) الطبرى ١/ ٥/ ٢٣٩٦.

(٣) ياقوت ج٤ ص١٠١٥.

(٤) نفس المرجع والصحيفة.

بفحل، وأنه أتاه الخبر بأن هرقل أمد دمشق بقوات من حمص، وأنه لا يدرى أيبدأ بدمشق أم بفحل من بلاد الأردن؟ فأجاب عمر بالبدء بدمشق فهى حصن الشام، على أن يشغلوا أهل فحل فى نفس الوقت. فأرسل أبو عبيدة إلى فحل بقوة كبيرة عليها أبو الأعور السلمى، وسار هو وخالد بن الوليد فى قوة الجيش الكبرى إلى دمشق، ورأى الروم الذين لجئوا إلى فحل مقدم المسلمين عليهم، وكان أثر اليرموك وما أورثه إياهم من فزع لايزال آخذا بنفوسهم، فأطلقوا ماء بحيرة طبرية ونهر الأردن فى الأرض حولهم، فأوحلت وتعذر السير فيها، وغاظ المسلمين ما صنع أعداؤهم فحاصروهم دون تقدم وظلوا على حصارهم. بينما كان أبو عبيدة يتقدم فى كثرة الجيش إلى دمشق، حيث هجر الناس منازلهم ليحتموا فى حصونها المنيعة برماتها ومنجنيقاتها وخنادقها التى طمتها مياه نهر بردي. وأمر أبو عبيدة جنده فسكنوا الغوطة معسكرين فى كنائسها، حتى لا تحاصرهم قوة تأتى من حمص، وبعث بعلقمة بن حكيم، وبمسروق العبسى فعسكرا بين دمشق وفلسطين، ليمنعا أمداد الروم من الجنوب. وعين لكل من قواده بابا من أبواب دمشق الحصينة فنزل هو بالجابية، ونزل عمرو بن العاص بباب توماء، ونزل شرحبيل بباب الفراديس، ونزل يزيد بالباب الصغير المعروف بباب كيسان، أما خالد: فنزل بباب دمشق الشرقي. ونصب المسلمون المنجنيق والدبابات حولَ أسوارها، لكن حصونها كانت أمنع من أن تفضها عدة العرب، فردت المدينة كل هجمات المسلمين بسهامهم ونبلهم. وكان نسطاس حاكم المدينة، وباهان قائدها ينتظران أمداد هرقل، فطالت المقاومة، وأرسل هرقل ما وعد به، ولكن قوات المسلمين تصدت لأمداده. وعلى الرغم من هذا لم تسقط المدينة، وتمسكت بالمقاومة حتى انصرم الشتاء والعرب لا يريمون. عند ذلك وهنت المقاومة وبدأوا يفكرون فى الصلح. ودخل المسلمون المدينة بعد أن تسورها خالد من الشرق وفتح أبوابها، بينما دخلها أبو عبيدة من الجابية صلحا، وكذلك فعل يزيد من باب توماء.

وكان طبيعيا أن يتجه أبو عبيدة بادئ ذى بدء إلى التفكير فيمن خلف وراءه من جنود المسلمين عند فحل بالأردن، ولكنه شغل قليلا بتسريح جند خالد إلى العراق كما أوصى أبو بكر، فسارت كتيبة العراق وعليها هاشم بن عتبة، وعلى مقدمتها القعقاع، لتدرك المسلمين فى القادسية كما مر، وكاد يشغل عن فحل تماما، إذ أوعز إليه البعض بفتح حمص، مدفوعين بحماسة الظفر، ومنتهزين فرار هرقل منها إلى أنطاكية، لكنه

خالف مشـورتهم حتى لا يقطع أحد ساقتـه، فترك يزيد على دمشق، وتقدم ومـعه خالد وقوات الجيش مجتمعة وبلغ بهم فـحل وقد جفت الأرض. وكان أبو بكر قد جعل إمارة الأردن لشرحـبيل، فله القيـادة لأن القتال يقع فى إمـارته، فبعث أبـا الأعور السلمى إلى طبرية فحـاصرها، وجعل خالدا على مقدمـة الجيش، وأبا عبيدة وعـمرا على المجنبتين، وضرار بن الأزور على الفرسـان. وأقاموا قبالة الروم ينتظرون وطال وقوفـهم، فخيل إلى سقلار قـائد فحل أنه يستطيع أخذ المسلـمين على غرة، فقد أمن المسلمـون وأقاموا على غير عدة لطول مقامهم، وأنهم لذلك سـتضطرب صفوفهم لأول وهلة. وخاب ظنه إذ إن المسلمين لم يأمنوا، وكان شـرحبيل يبـيت ويصبح على تعبئـة، واستبسل الروم فى قـتال مرير، وطالـت المعركة الليل كـله، والنهار الذى يليـه إلى الليل، حتى خـارت قوى الروم ووهنوا، فانهـزموا وقـتل قائدهم وأسلمتـهم هزيمتهم إلى الوحل، فلحق بـهم المسلمون فركـبوهم وخزا بالرمـاح، وقتلوهم شـر قتلة، فأصـيب الثمانون ألفـا لم يفلت منهم إلا الشريد[1].

ثم نهد شرحبيل ومعه عمرو فحـاصر أهل بيسان، ولكنهم لم يستمروا فى المقاومة واضطروا إلى التـسليم والصلح، فقـد هوت روحهـم المعنوية إلى منحدر من الضـعف، بسبب ما أصـابهم فى اليرموك وفى دمشق وفى فحل. ثـم إن أهل الشام لم تبلغ عداوة المسلمين منهم مبلغا يعـاون الروم على المقاومة، فقد حكمهم الروم ببـأس وقوة لا يثيران حماسة لحكمهم أو حرصا على بقائه.

وبلغ أهل طبـرية ما أصـاب بيسان وأهلـها، فطلبـوا إلى أبى الأعور أن يصـالحوا شرحبيل. واحتذى أهل أذرعات وعمـان وجرش ومآب وبصرى مثالهم، وكذلك أذعنت بلاد الأردن إلى حـوران وإلى البادية ورضـيت سلطان المسلمين، الذين أقامـوا الجند فى المدن وتركوا لأهلها إدارة شئونها.

وسار أبو عبيدة ليفتح حـمص، فلما بلغ دمشق ضم إليه ذا الكلاع وقوته التى كان قد تركها ردءا لدمشق من الشمال. ومـا إن بلغ إلى الشمال الشرقى من دمشق حتى لقى جيـشا من الروم بـعث به هرقل بإمرة توذر، فـوقف قبـالته. وإنه لكذلك إذ أقـبل شنس

---

(١) ياقوت ج٣ ص٨٥٢.

الرومى مددا لتوذر، فعسكر على حدة. وتداول أبو عبيدة مع خالد، واستقر رأيهما على أن يلقى خالد توذر، وأن يلقى أبو عبيدة شنس، وكان همهما أن يصدا المسلمين عن حمص. وبات كل من القائدين يرتب أمر الحرب وينظم خطته، ولما تنفس الصبح لم يجد خالد أثرا لتوذر، فقد انسحب فى جنوده من أول الليل يريد دمشق، ثقة منه بأن حاميتها لن تطيق مقاومته. وتدبر خالد الأمر، فلا قيمة للانتصار على شنس إذا ما افتض توذر دمشق. وأسرع خالد فى كتيبة من الفرسان يطارد توذر. وكان توذر قد وصل إلى دمشق، وبلغ يزيد خبره فخرج يلقاه، وأنشب القتال بعد أن أغلق أبواب المدينة، وبينما توذر يهاجمه أقبل خالد فأخذ الروم من خلفهم، وكبر وكبر الذين معه، فأيقن المسلمون المدافعون بوصول المدد، فأخذهم يزيد من أمامهم وخالد من خلفهم وأمعنوا فيهم قتلا، ولم يفلت منهم إلا الشريد. وغنم المسلمون خيلهم وأداة حربهم ومتاعهم. وعاد خالد إلى مرج الروم فوجد أبا عبيدة قد انتصر على شنس وقتله، ومزق جيشه كل ممزق[1]. وانطلق يلاحق فلوله إلى حمص وحاصر بعلبك، فلما ترامت هذه الأنباء إلى هرقل ارتحل على أثرها، وأرسل إلى أهل حمص يعدهم بالمدد وأن العرب لن يطيقوا برد حمص، ولم تطل مقاومة بعلبك أمام أبى عبيدة فصالح أهلها، وتركهم إلى حمص فحاصرها وعلى مقدمته خالد بن الوليد. وامتنع أهل المدينة بحصونها لا يخرجون لقتال المسلمين إلا فى اليوم الشديد برده، وطال بالمسلمين الحصار، وطال بأهل حمص انتظار ما وعدهم به هرقل، وانصرم الشتاء ولم يرحل المسلمون، فتراجعوا إلى الصلح أخيرا ودخلها المسلمون.

خلّف أبو عبيدة على حمص عبادة بن الصامت ومضى نحو حماة، فتلقاه أهلها مذعنين، فصالحهم على صلح حمص. وسار إلى اللاذقية حيث حاصرها واضطر أهلها إلى الصلح، بعد أن خدعهم عن مدينتهم بحفر حفائر كالأسراب، ثم أظهر المسلمون رحيلهم فاطمأن أهلها وخرجوا إلى معاشهم، وعاد المسلمون مع الليل حيث دخلوا المدينة من حفائرهم، ومنعوا الذين خارجها من الدخول، فسلم من أقام فى المدينة[2] وتوجه خالد إلى قنسرين حيث هزم ميناس هزيمة منكرة، وخرب المدينة بعد استسلامها عقوبة لها، وأودى بحاضرها وبمن فيها من عرب تنوخ وسليح.

(١) الطبرى ١/٥/٢٥٠٥.

(٢) هيكل، الفاروق ، ص٢٣٠.

وعلى الرغم من أن أبا عبيدة أجابهم إلى الأمان من بعد، فعادوا بعد أن فروا إلى أنطاكية، إلا أنهم غدروا بالعرب عندما ساروا إلى حلب، فوجه إليهم أبو عبيدة قوة حصرتهم وغنمت منهم مئونة للجيش، وتركت فيهم حامية تكفل إذعانهم وتحمى المؤخرة[1]. وسار أبو عبيدة إلى حلب فحاصرها، ولم يلبث أهلها أن خارت عزيمتهم برغم مناعة حصونهم فطلبوا الصلح[2].

وكان هرقل قد اعتصم بأنطاكية قبل ارتحاله إلى الرها، وهى عاصمة الإمبراطورية الرومانية فى الشرق، وكان فتحها لدى عمر يعادل فتح المدائن، ويتلهف على أخبارها تلهفه على أخبار القادسية. ولم يكن أبو عبيدة يجهل منعتها وقوة حصونها، كما لم يغب عنه أنها مقر الذين نجوا بعد هزائمهم فى مواقع الشام كلها، فاجتمعوا بها وعزموا على الدفاع عنها، ولكن دفاعهم انهار أمام المسلمين، فخرج أهلها وتركوا حصونهم حيث تلقاهم أبو عبيدة فى معركة حامية، وحاصر المدينة فسلمت ونزلت على حكمه فرحل عنها. ولكن أهلها عادوا فنقضوا عهدهم، فبعث إليهم بعياض بن غنم فقضى على انتقاضهم، وأقام فيها حامية ثابتة كأمر الخليفة[3]. ولم يبق لكى يتصل الفتح فى الشام بالفرات إلا تطهير شمال الشام، لذلك سار أبو عبيدة إلى حلب حيث بدد جيش الروم، ثم فتح قورس ومنبج، وبعث بخالد ففتح مرعش. وسار يزيد بن أبى سفيان من دمشق ففتح بيروت والثغور المجاورة[4] ويئس هرقل فارتحل من الرها إلى القسطنطينية. ورأى جبلة بن الأيهم ما حل به فكتب إلى أبى عبيدة بإسلامه وإسلام بنى غسان، حتى حدث أن وطئ إزاره رجل من بنى فزارة فتنصر والتحق بهرقل[5].

وبينما كان أبو عبيدة يسير مظفرا فى شمال الشام كان عمرو بن العاص وشرحبيل يواجهان قوات الروم، التى اجتمعت بفلسطين لأرطبون أكبر قواد الروم وأكثرهم دهاء، وكان قد وضع بالرملة جندا عظيما وبإيلياء جندا مثله، وترك بغزة وسبسطية ونابلس واللد ويافا حاميات. وأقام ينتظر مقدم العرب واثقا من النصر.

(١) الطبرى ١/٥/٢٥٠٧.
(٢) الطبرى ١/٥/٢٥٠٨.
(٣) الطبرى ١/٥/٢٥٠٨.
(٤) هيكل، الفاروق ص٢٣٦٦.
(٥) الأغانى الساسى ج١٤ ص٤.

وأدرك عمرو دقة الموقف، وخشى توزع جنوده بين هذه الأماكن، فخاطب الخليفة فى ذلك. فأشار عمر بأن يتوجه معاوية إلى قيسارية ليفتحها فلا يجىء إلى أرطبون أمداد عن طريقها. وسار معاوية إليها فحصرها، وزاحف أهلها وردهم إلى حصونهم كلما خرجوا له. وطال بهم الأمر حتى استماتوا فى قتاله ذات يوم فقضى عليهم، حتى ليقال إنه قتل منهم ثمانين ألفا. وبسقوط قيسارية أمن المسلمون جانبها، وامتنع كل مدد يجيء إلى الروم عن طريقها[1].

ولم يكتف عمرو بهذا، فقد رأى أرطبون يتقدم بقواته إلى أجنادين، فوجه علقمة ابن حكيم ومسروقا العكى إلى إيلياء حتى يشغل الروم عنه. ووجه أبا أيوب المالكى إلى الرملة لنفس الغرض. وسار عمرو فى جلة الجيش إلى أجنادين، فإذا الروم قد تحصنوا وخندقوا. واحتال عمرو فتنكر حتى دخل على أرطبون كأنه رسول، وتأمل حصونه وعرف ما أراد. واحتال حتى خرج بعد أن كاد أمره يكتشف، ولم يبق أمام عمرو إلا أن ينشب القتال بعد أن عرف مآخذه ومآتيه. وبعد أن أعد له عدته التقى الجيشان بأجنادين، كما التقى جيش الروم والمسلمين بالواقوصة، وكذلك كان القتال شديدا، وترجح النصر زمنا بينهما. وكان أهل فلسطين من اليهود والنصارى يقفون من حكامهم ومن غزاتهم موقف المتفرج، لا تحركهم حماسة للروم ولا غضب على المسلمين. وساعد هذا على أن يكون المسلمون أكثر ثباتا وصبرا، فلما آذنت الشمس بالمغيب رأى أرطبون صفوفه تضطرب فانسحب فى الناس متقهقرا إلى بيت المقدس، فأفسح علقمة ومسروق طريقا، فدخل المدينة بمن بقى من جنده معتمدا على مناعة حصونها. وعسكرا بقواتهما إلى جانب قوات أبى أيوب بأجنادين. بينما أقام عمرو ينظر فى مهاجمته أرطبون ببيت المقدس. ورأى عمرو أن يحيطوا به فيقطعوا خط الرجعة عليه من ناحية البحر، ففتحوا رفح وغزة وسبسطية ونابلس واللد وعمواس وبيت جبرين ويافا[2].

وكاتب أرطبون عمرا بأنه لن يفتح شيئا بعد أجنادين، فعليه أن يرجع ولا يغتر. فرد بأنه صاحب فتح هذه البلاد، وطلب إليه أن يتدبر أمره قبل أن يدهمه، ولكنه كان يشعر

---

(١) هيكل، الفاروق ص٢٤٧.

(٢) الطبرى ١/٥/٢٤٠٥.

أنه بحاجة إلى مدد، فقد أنهكت وقعة أجنادين المسلمين، فكاتب الخليفة أنه يعانى حربا كئودا صدوما، وبلادا ادخرت له، وطلب رأيه. وظل محاصرا للمدينة والمقاومة تشتد، حتى ذاق المسلمون من قسوة المنجنيقات وشدة البرد الكثير. وكان جليا أن استماتة المدينة فى الدفاع سببها الدين. فلما أيقنوا بانقطاع المدد عنهم، وبقسوة المنجنيقات على المسلمين خافوا على كنيستهم وقبلتهم ألا يصالحهم المسلمون على ما صالحوا عليه المدن الأخرى، ولهذا فقد اشترطوا أن يتولى عقد الصلح خليفة المسلمين بنفسه، وربما ليتركوا لجنودهم فرصة ينسحبون فيها إلى مصر. وكتب لهم عمر كتابا أمنهم فيه على أنفسهم وبيعهم وصلبانهم[1].

وانتهز عمر وجوده بالشام فنظم إدارته، وعدل قيادته وقسم إقليم الشام مقاطعات تعرف بالأجناد، ثم قفل راجعا إلى المدينة.

ولم يشأ الروم بعد كل هذا أن يتركوا المسلمين ينعمون بالاستقرار فى بلاد الشام. وداعب الأمل هرقل فى أن يستعيد الشام فى محاولة نهائية، وتصادف أن القبائل العربية الضاربة فى شمالى الشام وظلت على مسيحيتها خشيت خطر المسلمين، فراسلت هرقل تطلب عونه فى مهاجمة المسلمين، ورأى هرقل فى ذلك فرصته فراسل هذه القبائل لتستعد، بينما أبحرت جيوشه من الإسكندرية بقيادة ابنه قسطنطين. وألقت الحملة مرساها على شاطئ أنطاكية واستولت عليها. وهناك انضم إليها قبائل العرب المتمردة، ولم يلبث شمالى الشام أن ثار. فألفى أبو عبيدة نفسه محصورا فى حمص، بينما أعداؤه يسيرون إليه برا وبحرا، فراسل عمر فأمده بالقعقاع ونصحه بالتريث[2].

وكانت الخطة أن تحصر القبائل المتمردة عن دائرة جيش الروم فطوقها عبدالله بن عتبان وسرعان ما رجعت إلى مضاربها وآثرت السلامة[3].

واستطاع المسلمون ــ بعد انفرادهم بالروم ــ أن يحطموا مقاومتهم، وأن يهزموهم برغم استماتتهم فى القتال، وأخيرا ألجأهم المسلمون إلى الانسحاب ومنذ هذا اليوم عرف

---

(١) الطبرى ١/ ٥/ ٢٤٠٥.

(٢) الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص٥٢.

(٣) ابن الأثير ج٢ ص٢٢٤.

المسلمون قيمة الأساطيل البحرية. وقد ألمت بالمسلمين فى هذه الفترة مجاعة عنيفة ووباء شديد. أصابتهم المجاعة فى مواطنهم فى شبه الجزيرة، وأصابهم الوباء فى الميدان. ودامت المجاعة تسعة أشهر، وهلك فيها الزرع والنسل والضرع والحرث، وأصاب الناس منها الجهد والبلاء. أما الطاعون فقد امتد من الشام إلى العراق فأفنى الألوف من خيرة المسلمين رجالا ونساء وجندا ومدنيين، حتى ارتاع له الناس أيما ارتياع. وعالج الخليفة المجاعة بصبر وحكمة، مستعينا بما أفاءه الله من خيرات الشام والعراق. وأما الوباء فيذهب بعض المؤرخين المتأخرين أنه نشأ عن كثرة القتلى فى الميادين، حتى تعذر دفن أكثرهم فأثار ذلك ما سبب الوباء. وعالجه عمرو بن العاص، إذ أشار بإخلاء المنازل والإخلاد إلى الخلاء والاعتصام بالجبال.

واهتم عمر بأمر الوباء وما آل إليه أمر الشام بعد زواله، فقد فنى من المسلمين خمسة وعشرون ألفا. وانتقل من الشام إلى العراق ففتك بأهل البصرة. ولا يأمن عمر أن يكون ذلك سببا فى اضطراب النظام الاقتصادى، بسبب مواريث من فنى، فقد يجر توزيعها ثارات بين المسلمين، فعول على الخروج إلى الشام ونزل الجابية، وزار مدن سورية جميعها يستفسر عن حال المسلمين، ووزع المواريث ونظم ثغور الشام ومسالحه، وبذلك استقر كل أمر فى نصابه، وثبتت أقدام المسلمين بالشام وورثوا فيها الروم. ولكن المسلمين كانوا يدركون إدراكا عميقا أن وجودهم بالشام رهن بفتح مصر، بعد أن رأوا فى مقاومة الروم لهم من قواعد مصر البحرية فى حملة قسطنطين ما أزعجهم وهدد سلطانهم فدفعهم هذا إلى التشاور مع الخليفة فى مؤتمره بالجابية فى فتح مصر على ضوء الأحداث والواقع.

***

٤ ـ فتوح مصر وافريقية

كانت مسيرة عمرو بن العاص إلى مصر بإذن من عمر بن الخطاب، لكن عمر لم يأذن بهذا السير إلا بعد تردد طويل، استمر عامين أو أكثر، فالمتواتر أن ابن العاص خاطب الخليفة فى غـزو مصر حين فتحت بيت المقـدس أبوابها للمسلمين، وبعد أن صـالح أمير المؤمنين أهلها فى السنة السادسـة عشرة من الهجرة، حينما انـسحب قائد الروم الأرطبون بقواته من فلسطين إلى مصر[1]. ولعل عمرا أشار على الخليفة بتعقبه وهو منهزم، قبل أن تتاح له فرصة التحصن والدفاع والمقاومة فى بلاد منيـعة الحصون وفيرة الميرة، ولاسيما أن إطالة أمد التفاوض فى حصار بيت المقدس، وطلب حضـور الخليفة بنفسه لعقد الصلح لم يكن الهدف من ورائهما إلا كسب الوقت، حتى يتمكن أرطبون من الانسحاب بجنده إلى مصر.

ولعله أيضا ذكره بما صنعه الـروم حينما رأوا التجمع فى مصر ليـشنوا منها هجوما على المـسلمين، مستغلين فى ذلك إمكانياتها البـحرية كما حدث فى حملة قسطنطين، التى خرجت من شـواطئ الإسكندرية واستـولت على أنطاكيـة. وكادت بمسـاعدة القـبائل أن تزعزع فتوحات المسلمـين. وليس شك فى أن إدراك هذه الصلة بين مصر والشام ينم عن فهم لطبيعة المنطقة الجغرافيـة، والضرورات الحربية التى تحتم على المسلمين الاستيلاء على مصر لضـمان استقرار مكاسـبهم فى الشام. ولكن الخليفة تردد وطال تردده، فـقد كانت الحرب سـجالا بين المـسلمين والفرس، وكـان شمال الشـام يعج بالثورة والانتقـاض، بينما حدثت الكارثة التى هددت شبـه الجزيرة بالفناء. ولم تكد المجاعة تنتهى حـتى فشا طاعون بفلسطين وامتد حتى البصرة. وكان طبيعـيا إذن أن ينـسى الخليفة كل ما حدثه به عمرو بن العاص عن مصر.

ولما عادت شبه الجـزيرة إلى مألوف حياتها، وبرئت الشام من الـوباء، وجاء الخليفة إليهـا يصلح شـئونها لزم ابن العاص أمـير المؤمنين، يدلى إليـه بحجج جديـدة حتى يزيل

---

(١) الطبرى ١/ ٥/ ٢٤٠٤.

تردده، فلو قنع المسلمون بموقفهم لحسبهم أعداؤهم تضعضعوا تحت وطأة الوباء والجوع، ولهاجموهم فى الشام عن طريق مصر، أما إذا نهد لهم المسلمون فى مصر ذاتها وقفوا موقف المدافع، وتعطلت سياسة الهجوم تماما. ولا بد أن ابن العاص قد أفاض فى تزيين الفتح لأمير المؤمنين إفاضة العليم بمصر ومدنها وطرقها وحصونها، لما أتيح له من زيارتها، وما استخلصه من أسرى الروم الذين يعرفونها حق المعرفة. فمصر ولاية غنية بطبيعتها وثرواتها، تسيطر على منافذ العالم المعروف كله، وهى مركز تجارته، وأساطيلها التجارية تشق عباب البحرين من أقدم العصور إلى الجنوب من بلاد العرب، تحمل إليه التجارة، وتجيء منه بمختلف السلع، وتتصل عن طريق سيناء بطريق القوافل المنحدر إلى مكة واليمن. وهذا الاتصال أتاح احتكاكا مباشرا بين العرب وأهل مصر، وأدى إلى استقرار عدد غير قليل من العرب ببوادى مصر، وإلى استقرار جالية مصرية على طريق القوافل، كانت نواة لمدينة يثرب، كما يذكر مؤرخو العصور القديمة.

وظلت هذه الصلات التجارية متصلة بين مصر وبلاد العرب حتى أضعفها استيلاء الروم على مصر زمنا، ثم عادت إلى مثل ما كانت عليه، ذلك أن العرب ظلوا يقومون برحلة الصيف إلى الشام، كان منهم من ينحدر إلى مصر عن طريق القوافل عند آيلة، وكان أكثرهم يسيرون إلى الشام، فإذا قضوا وطرا من التجارة توجهوا إلى مصر، وذلك ما كان يصنعه تجار مكة كعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وعثمان بن عفان[1].

وكان العرب بحكم هذه الصلات يعرفون الكثير عن مصر. وقد تحدث القرآن الكريم عنها فى مواضع كثيرة، فزود العرب المسلمين بها علما، بنهرها العظيم وأرضها المعطاء وزروعها الناضرة وخيراتها الوفيرة، فى قصص إبراهيم وموسى وعيسى، فأثار فى نفوسهم صورة مصر الطبيعية، وصورا من تاريخها منذ أقدم العهود إلى عهدهم.

ولم تكن معرفة المسلمين بمصر مقصورة على ما كان من أمرها فى العصور الأولى، بل كانوا يعرفون من أمرها فى زمانهم أكثر مما يعرفونه من تاريخها، ذلك أن العرب كانوا يتابعون ما يجرى بين فارس والروم بعناية بالغة، فقد اتصل القتال بين الدولتين بمصر زمنا غير قليل، ذلك أن الفرس دخلوها فى سنة ٦١٦م وأقاموا بها تسع سنوات،

(١) حسن المحاضرة ، ج٢ ص٤١.

حتى أجلاهم هرقل عنها وعن الشام. وخلال هذه السنوات كان المسلمون يمدون أبصارهم إلى تلك الأرجاء، مؤمنين بأن الروم سيغلبون الفرس لا محالة كما أوحى الله إلى نبيه ﷺ. فلما تمت هزيمة الفرس كان رسول الله ﷺ قد هاجر إلى المدينة، وكانت سراياه تسير منها إلى ما حولها، فلما استتب الأمر بعث رسله إلى كسرى وقيصر وملوك الحيرة وغسان وأمراء الجنوب من شبه الجزيرة، وإلى حاكم مصر يدعوهم جميعا إلى الإسلام.

وقد يلفت النظر أن المقوقس حاكم مصر كان أجمل الملوك والأمراء ردا على رسالة النبى ﷺ وأكثرهم مجاملة له، فبعث مع حاطب بن أبى بلتعة رسول النبى ﷺ إليه بكتاب يشير فيه إلى أنه يعتقد أن نبيا سيظهر، ولكنه ظن أنه سيظهر فى الشام.

ويذكر أنه استقبل رسوله بما يجب له من إكرام، وأنه بعث معه بهدية جاريتين وبغلة بيضاء وحمار ومقدار من المال وبعض من خيرات مصر(١).

وقد اصطفى محمد ﷺ مارية القبطية إحدى الجاريتين لنفسه، فولدت له إبراهيم، فرفعها النبى ﷺ إلى مقام زوجاته، وكان يقول: «استوصوا بالقبط خيرا، فإن لهم ذمة ورحما».

وقد عرف المسلمون من أهل الشام ما يعرفونه عن مصر، وفضلا عن معرفة عمرو الشخصية بما بها، كانت صورة مصر واضحة فى ذهنه عن هذه السبل، عندما بدأ يفاتح الخليفة فى فتحها ويزينه له ويغريه بشتى الطرق، ويضع أمثلة لخصبها ووفرة إنتاجها تحت عينيه، ويفيض فيما يظنه دافعا له على الإذن بفتحها. فهى مركز خطير الأهمية بالنسبة لدولة الروم، وهى مخزن إمداد للميرة والمؤن والغلال والجند، وفتحها قوة للمسلمين وعون لهم، إذ هى أكثر البلاد أموالا(٢)، وهو فى نفس الوقت حرمان للروم من أهم الشرايين التى تبعث فيهم الحياة.

وظل عمرو يلح على أمير المؤمنين مغريا إياه بأن يأذن له، عارضا عليه ما آل إليه حال المصريين تحت حكم الروم من الظلم والعسف والاضطهاد وأثر المبادئ الإسلامية التى بلغتهم عدالتها وسماحتها فيهم فى تيسير الفتح.

---

(١) صبح الأعشى، ج٦ ص٤٦٧.

(٢) ابن عبد الحكم ص٥١.

وقد أصاب عمرو فى إشارته إلى هذه السياسة الظالمة التى اتبعها الروم ولم يكن إلحاحه وليد حبه للمغامرة التى يظهر فيها مواهبه فى مباراة خالد بن الوليد، كما يزعم بعض المؤرخين[1] فإن هدفا متناهيا فى السمو كهذا لا يمكن أن يعزى إلى سبب شخصى، إذ لا يعقل أن يقدم خليفة حذر كابن الخطاب على فتح مصر دون أن تكون هناك دوافع لها خطرها.

وكل ما هنالك أن عمرا قد أدرك مدى الخطر الذى يمكن أن يسببه بقاء مصر فى حوزة الروم، بعدما رأى إبان فتح فلسطين وبيت المقدس، ولأنه أحس بما يدور فى مصر ولمس بنفسه أخبارها، وهجرة الألوف من أبنائها إلى الشام فرارا من الاضطهاد الدينى والمذهبي. وعرف عن تعذيب اليعاقبة الشيء الكثير كما عرف ما يرزح تحته المصريون من أعباء الفتن والضرائب والمكوس الباهظة.

فقد استهدف المصريون منذ اعتناقهم المسيحية لعدوان الروم، فتوالت عليهم النقم من قياصرتهم قتلا وتعذيبا وتشريدا، حتى جاء القيصر دقلديانوس فأغلق كنائسهم وأسرف فى قتلهم، بغية استئصال شأفتهم أو ردهم إلى الوثنية، وترتب على هذا قيام الثورات فى الإسكندرية، مما اضطر القيصر إلى إخمادها بنفسه، بعد أن حاصر المدينة ودمر أبنيتها، وراحت النظم الإدارية بعد هذا ترمى إلى التشدد فى تقديس الإمبراطور وإكباره، بغية تحويله من رئيس دينى إلى ما يشبه الإله الذى يعبد وتقدم إليه القرابين.

وقد أثارت هذه السياسة سخط المصريين. فلقى الروم فى سبيل تأليه إمبراطورهم مقاومة عنيفة وعنادا شموسا، حتى أصبح عصر دقلديانوس مما يؤرخ به فى مصر، إذ اعتبر اعتلاؤه العرش مبدأ تاريخ الشهداء لكثرة القتلى والمعذبين فيه[2].

وعندما اعتلى قسطنطين العرش اعتنق المسيحية، ولكن القبط خلصوا من اضطهاد الحكومة ليقعوا فى اختلافات مذهبية حول كنه العلاقة التى يمكن أن تكون بين الله وعيسى. ولم يكد ثيودوسيوس يقبض على أزمة الأمور حتى قرر تنصير الإمبراطورية فى نهاية القرن الرابع، ولكن الخلافات المذهبية لم تتوقف، وإنما تبلورت فى مذهبين متقابلين: هما اليعقوبية والملكانية.

---

(١) فيليب حتى ، ص٢١٥.

(٢) ملن/ تاريخ مصر تحت حكم الرومان ص٨٧.

ويعتقد اليعاقبة من أهل البلاد، بأنه قد صار للمسيح طبيعة واحدة بعد تجسده، نتيجة امتزاج الطبيعة الإلهية بالطبيعة البشرية، وأن هذا الامتزاج كامتزاج الخمر بالماء، حتى يصيرا شيئا واحدا، بينما يرى الملكانيون من الروم الحاكمين أن الابن مولود من الأب قبل كل الدهور، غير مخلوق، وهو جوهره ونوره، وأن الابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم فصارا واحدا هو المسيح، وهذا الاتحاد كاتحاد النار فى الصفيحة المحماة.

وبرغم أن المذهبين ينتهيان إلى ما يشبه النهاية الواحدة المتفقة، فهما يختلفان فى التفاصيل، وقد انعقد مؤتمر خلقدونيا فى مطلع النصف الثانى من القرن الخامس فأقر المذهب الملكانى وأوصى بعزل بطريق الإسكندرية ومؤسس المذهب اليعقوبى، وبقتل كل من يقول بمذهبه، واستقبل هذا القرار بالثورة، وازداد عسف الحكام بالشعب فأباحوا المدن وأبطلوا الأعياد وأغلقوا الحمامات، وزجوا بزعماء الثورة فى الهياكل وأحرقوها بهم، وقطعوا إعانة الغلال، واستمر الاضطهاد عنيفا، ووقعت المعارك الدموية وأحرقت الإسكندرية وقتل مائتا ألف فى كنيستها بأمر البطريق أبو لينارس، الذى فرضه عليهم يوستنيانوس فى مطلع القرن السادس، وجعل منه حاكما للإسكندرية تئول إليه جميع أملاك الكنيسة[1].

وأثمرت هذه السياسة الدموية المتعسفة فى مصر عداء دائما وبغضا للروم لا حد له. وأتيح للقبط فى مطلع القرن السابع أن ينعتقوا من جحيم الروم لمدة يسيرة إبان غزو الفرس لمصر، ولكن هرقل أعادهم إلى ما كانوا فيه من التعذيب والاضطهاد، وازداد الحال سوءا فى محاولته فرض مذهب ابتكره له سرجيوس، للتوفيق بين الملكانيين واليعاقبة، وليقضى به على الخلافات الناجمة عن التعرض لكنه المسيح وصفته وطبيعته.

ويقضى هذا المذهب بأن للمسيح إرادة واحدة وقضاء واحدا، وكان استقبال القبط لهذا المذهب سيئا للغاية، وحاربوه حربا أشد من حربهم للوثنية، وتجددت الفظائع واضطر المصريون إلى الفرار إلى الصحراء، وشاع الاتجاه إلى الرهبنة كما فعل بنيامين البطريق، الذى أوعز بعد فراره إلى القبط بألا يقاوموا العرب، فكان أن لم يجد عمرو فى طريقه من الفرما إلى بابليون مقاومة عنيفة، وقد صاحب الاضطهاد الدينى اضطهاد سياسى

(١) ملن/ تاريخ مصر تحت حكم الرومان ص ١٠٠ - ١٠١.

واجتماعى، لا يقلان فى آثارهما عنه، فإن مصر لم تكن فى اعتبار الروم غير مزرعة للغلال. وبينما كانوا يستنزفون خيراتها كان أبناؤها يعانون الكثير من الفقر والمرض والجهل، واشتعال الفتن والحرمان من حقوقهم ومن تولى المناصب الرفيعة، ومن فرض الضرائب الباهظة المتعددة على الأشخاص والأشياء، وعلى المارة والموتى وصناع السفن والعاهرات وزوجات الجنود، وتذاكر المرور وختمها، وأثاثات المنازل وشراعات السفن وصواريها، فضلا عما كان مفروضا على الأهالى من وجوب إيواء الموظفين والجند، وتقديم ما يحتاجونه من وسائل النقل والغذاء[1].

ولا شك فى أن هذه العوامل كلها لاقت اهتماما من الخليفة، الذى استمع إلى عمرو وإغرائه بفتح مصر، واقتنع بوجاهة رأيه، وكفالة كل هذه العوامل لإنجاح فتح المسلمين لمصر فعقد له لواءها. والروايات التاريخية تختلف اختلافا بعيدا حول إذن الخليفة لعمرو بالفتح، بين أن يكون عمرو قد حبذ الفتح إلى الخليفة، أو أن يكون الخليفة هو الذى أمر به عمرا، وبين أن يكون عمرو قد استأذن فى الفتح قبل تقدمه أو بعده[2].

إلا أن هذه الروايات المختلفة جميعا تتفق على تلك الإحالة التى تكاد أن تكون استخارة، تمثلت فى الكتاب الذى أرسله الخليفة إلى عمرو. والظاهر أن متابعة هذه الأقوال لا يتفق وتلك البواعث الجادة الملحة التى لا يخالطها ريب أو تردد فى فتح مصر، استكمالا لفتح الشام والقضاء على الدولة البيزنطية قضاء مبرما.

والذى يمكننا أن نتقبله فى ذلك هو أن الخليفة أذن لعمرو فى فتح مصر، وأنه عقد له على أربعة آلاف رجل، ولكنه عاد فتخوف وندم بعد أن أبان له عثمان حرج موقف عمرو لقلة من معه. فكتب إلى عمرو كتابه الشهير، يعده بإمداده إن كان قد دخل أرض مصر فعلا. وعلى هذا النحو تستقيم مدافعة عمرو للرسول الذى حمل كتاب الخليفة إلى أن يكون قد دخل بالفعل فى أرض مصر. وقد أدرك الكتاب عمرا فى قرية بين العريش ورفح داخل حدود مصر حيث فض الكتاب، ثم سار على بركة الله وبعونه[3]. فبلغ

---

(١) ملن، ص١١٥-١٢٥.

(٢) المقريزى ج١ ص٢٨٨، ابن عبد الحكم ص٥١.

(٣) ابن عبد الحكم ص٥١ - ٥٢.

العريش بعد أن اخترق رمال سيناء، وكان ذلك أواخر سنة ١٨هـ، ولم يلق كبير عناء فى فتحها[١].

وانصرف عمرو متجها نحو الغرب، دون أن يشترك مع جند الروم فى قتال حتى وصل الفرما أو بيلوز، وهى مدينة قديمة العهد حصينة، لها كنائس وأديرة وميناء على البحر، يصل إليها جدول من النيل، وكانت تمثل مفتاح مصر فى ذلك الوقت، وكان جند الروم يعتصمون بحصونهم، فحاصرهم عمرو، واستطاع المسلمون أن يسبقوهم ذات مرة إلى هذه الحصون فافتضوها، وتم لهم احتلال المدينة أوائل سنة ١٩هـ[٢].

وتقدم عمرو دون أن يجد مدافعة، بعد الاستيلاء على مفتاح مصر وعلى القاعدة التى يستطيع النكوص منها إن اقتضى الأمر تراجعا، وتلقى الأمداد عن طريقها إذا ما تقدم. ووصل إلى بلبيس، وبعد حرب دامت شهرا تم للمسلمين فتحها، وهزم الروم وألحق بهم خسائر فادحة. وبالاستيلاء على بلبيس أصبح المسلمون على مسيرة يوم واحد من رأس الدلتا[٣].

ومضى عمرو حتى أتى أم دنين(*) شمال حصن بابليون، وهى قرية على النيل عند مأخذ خليج تراجان، الذى يصل مدينة مصر بالبحر الأحمر عند السويس، وكانت حصينة يجاورها مرفأ فيه سفن كثيرة، وكانت مسلحتها طليعة الدفاع عن حصن بابليون العظيم. وأدرك عمرو دقة الموقف فإن الروم قد لاذوا إلى الحصن بكل قواتهم، وأمدوا أم دنين بمسلحة قوية، وتهيأوا بذلك لقتال فاصل، وجاءته عيونه بأنباء عرف منها أنه لن يستطيع أن يفتض هذا الحصن أو يحاصره بمن معه من الجند، فضلا عن فتح مدينة مصر التى تقع فى حماية الحصن، فعول على حصار أم دنين وحصنها، فإن استولى عليه سارت السفن تحت إمرته، وأصبح فى مقدوره أن يدبر أمره.

وكان الحذر يقتضى عمرا ألا يفرط فى رجاله، وأن يستعجل الخليفة المدد ليضاعف الأمل فى قلوب جنده، فبعث رسالة إلى عمرو وأذاع فى الجند أن المدد موشك أن

---

(١) حسن المحاضرة، ج١ ص٤٦ ، المقريزى ج١ ص٢٨٨.

(٢) ياقوت ج٣ ص٨٨٤.

(٣) بتلر ص١٩١.

(*) حى الأزبكية الآن.

يجيء، ثم تقدم إلى أم دنين فحاصرها، ووقف قبالتها يمنع عنها العتاد والميرة، ولم يفكر الروم المقيمون فى الحصن أن يخرجوا، بعدما رأوا مصير بلبيس. أما مسلحة أم دنين فكانت تخرج إلى القتال أحيانا ثم ترتد إلى حصنها، ولم يتغير الموقف خلال أسابيع، وإذا بالمدد قد أقبل ورآه أهل الحصن فأسقط فى أيديهم. وكان عمرو قد عرف مداخل الحصن ومخارجه، فتخير وقتا أمر فيه أصحابه أن يشدوا جميعهم شدة رجل واحد، وسار فى طليعتهم، ففتحه الله عليهم بعد مقتلة عظيمة، وبعد أن أسروا من بقى فيه حيا[1].

ونزل عمرو أم دنين، ثم عبر مع جنده النيل فى سفنها، وساروا يتخطون الصحراء مجتازين أهرام الجيزة، وهناك على الجانب الغربى على النيل دارت معركة حامية كانت للمسلمين على حنا وجنده. ثم عاد عمرو إلى بابليون، لما علم بنبأ الأمداد التى فى طريقها إليه[2].

واستطاع أن يلتقى بالمدد، ويبلغ عسكر المسلمين فى هليوبوليس، حيث ضيع على تيودور الفرصة، واغتبط عمرو بالمدد الذى أتاه، وفيه الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود ومسلمة بن مخلد، وعسكر المسلمون فى عين شمس وجاءته الأنباء بأن تيودور أمير جند الروم قد تداول مع أصحابه، فرأوا أن مقامهم بالحصن يظهرهم أمام المصريين بمظهر الجبن والخور، ويغرى الناس بالانضمام إلى المسلمين ومعاونتهم، فعزموا على الخروج لإجلاء المسلمين عن عين شمس، ودبر عمرو خطته، فسير خمسمائة من رجاله تحت الليل من وراء الجبل حتى دخلوا مغار بنى وائل عند قلعة الجبل، وأخرج خارجة بن حذافة فى خمسمائة آخرين ساروا قبيل الفجر إلى أم دنين، ولما تنفس الصبح سار بمن معه حتى بلغ مكان العباسية الآن وأقام ينتظر. وخرج الروم وتقدموا إلى عين شمس فبلغهم أن عمرا تقدم يريد لقاءهم، فاستخفهم الطرب وأيقنوا بالظفر، وتعاهدوا على الاستبسال. والتقى الفريقان فأنشبوا القتال، وإنهم لكذلك، إذ انحدرت الكتيبة المختبئة فى مغار بنى وائل فعصفت بمؤخرة الروم عصفا فاضطربوا وأخذهم الفزع وتقهقروا إلى أم دنين، وعندئذ خرج كمين خارجة فأمعن فيهم قتلا، ولاذ معظمهم بالفرار، وبلغت طائفة

(١) هيكل، الفاروق ج١ ص١٠٢.

(٢) بتلر ص١٩٨.

منهم الحصن فلاذت به، وفزع آخرون إلى النهر، ومال العرب فاستولوا على حصن أم دنين كرة أخرى، وانتصروا نصرا مؤزرا وطد أقدامهم فى مصر[1].

ثم نقل عمرو عسكره من عين شمس إلى شرقى الحصن وشماله، وجاءته الأنباء بفرار حامية الروم إلى نقيوس، فجهز كتيبة استولت على إقليم الفيوم كله، وقوة أخرى استولت على إقليم المنوفية. وحينئذ أخذ الناس يفرون إلى الإسكندرية هلعا[2]. ولم يكن عمرو ليبطره الظفر فيقصد إلى الإسكندرية قبل أن يفتض حصن بابليون، وحاصره وهو يعلم أن الحصار سيطول، لارتفاع النهر وتدافع تياره، ولمناعة الحصن واكتفائه بما فيه من ميرة وماء وعتاد. وكان الروم يرمون المسلمين بالمنجنيق، فيجيبهم العرب بالحجارة والسهام، ومضى شهر ولم يتزحزح المسلمون، بينما وهن الروم ويئسوا من وصول أمداد إليهم، فتشاور المقوقس مع قومه على التفاوض مع العرب، ورأوا أن تكون المفاوضة سرية، فتسلل مع جماعة من قومه، وركبوا السفن إلى جزيرة الروضة، حيث أرسلوا إلى عمرو يطلبون التفاوض معه، وكان رد عمرو بعد أن احتجز الرسل يومين أن يختاروا بين الإسلام أو الجزية أو القتال، فرد رسله يطلبون أن يرسل المسلمون رسلا يحادثونهم. فبعث عمرو بعبادة بن الصامت ونفر معه. وتكلم عبادة وذكر ما جاءهم به رسول الله ﷺ من الحق والهدى، وأعجب المقوقس بكلامه، ومال إلى تهديده وإغرائه فلم يفلح معه، ولم يتزحزح عن واحدة من ثلاث خصال، وفشلت المفاوضات وعادت الحرب، وأمهلهم عمرو ثلاثة أيام، غير أن عمل المقوقس ذاع فى الناس فثارت ثائرتهم، وأبوا إلا القتال.

وتجهز أهل الحصن، وخرجوا عند انتهاء الهدنة بغتة، فأخذوا العرب المسلمين على غرة، ولم تذهل البغتة العرب، وأسرعوا إلى سلاحهم، وقاتلوا الروم قتالا شديدا، فتكاثر المسلمون عليهم وألجئوهم إلى الحصن، بعد أن قتلت منهم مقتلة عظيمة[3].

وخاطب المقوقس عمرا فى الصلح فأجابه إليه[4]. وعلق نفاذ الصلح على رضا الإمبراطور، فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليهم، وإلا كانوا جميعا على ما كانوا عليه[5].

---

(١) بتلر ص٣٢٠- ٣٢٣.

(٢) هيكل، الفاروق، ص١١٠.

(٣) بتلر ص٢٦٢.

(٤) ابن عبد الحكم ص٦٤.

(٥) نفس المرجع.

واستدعى الإمبراطور المقوقس إلى القسطنطينية، حيث أنّبه واتهمه بالخيانة، ونفاه وهدده بالقتل[1]. وعلم المسلمون برفض الصلح، فانتهت الهدنة وعاد القتال بين الفريقين، فألقى الروم فى الخندق حسك الحديد، وعطلوا تقدم المسلمين إلى الحصن، وأقاموا على التراشق بالحجارة والسهام حتى تصرمت أشهر الشتاء، وجاءت الأنباء بموت هرقل ولكن الحصن ظل يقاوم.

وضاق العرب بطول الحصار الذى استمر شهورا سبعة، وهانت عليهم أنفسهم حتى وهب الزبير نفسه لله، وأتى فى جنح الليل بكتيبة آزرته فطمّوا الخندق، ووضعوا سلما علاه الزبير، وانطلق يكبر وتبعه أصحابه وكبروا، وأجاب المسلمون من خارج الحصن، فلم يشك الروم فى أن العرب اقتحموا الحصن فهربوا، وعمد الزبير إلى باب الحصن ففتحه، ودخله المسلمون واستولوا عليه[2].

وبعد سقوط بابليون: انفتح الطريق أمام المسلمين نحو مصر السفلى وريفها، ولكن الترع والفيضانات والقنوات وفيضان الماء، كل هذا جعلهم يطلبون مساعدة الأهالى، الذين استجابوا لهم وصاروا لهم أعوانا[3]. واستغرق مسير عمرو إلى الإسكندرية اثنين وعشرين يوما، وكان الروم قد تقهقروا إليها للاحتماء بها، فهى قصبة البلاد وسقوطها يعنى زوال سلطان الروم عن مصر زوالا تاما؛ ولهذا فقد أخذت الجيوش الجرارة تنتهى إليها عن طريق البحر، والحاميات تفر إليها عن طريق البر، وأغلقت حامياتها الأبواب وتحصنوا.

وكان أول صدام للمسلمين فى طريقهم بالروم عند عبورهم فرع رشيد إلى الغرب، عند ترنوط(*)، وكان قتال طفيف، انتصر فيه المسلمون[4]. وأرسل عمرو من هناك حملة بقيادة شريك بن سمى، لقيت الروم عند الكوم الذى سمى باسمه، فنصر الله المسلمين[5].

---

(١) بتلر، ص٢٦٤.

(٢) ابن عبد الحكم ص٥٨.

(٣) ابن عبد الحكم ص٦٤.

(٤) نفس المصدر ص٦٦.

(*) غرب رشيد.

(٥) نفس المصدر والصحيفة.

ومضى عمرو، إثر استنجاد شريك به، فالتقى بالروم فى سطليس أو سنطيس(*)، حيث اقتتلوا قتالا عنيفا بها، وكانت العاقبة للمسلمين. وبعد مسيرة عشرين ميلا التقى المسلمون بالروم عند الكريون، وكانت مسلحة عليها خيل ورجال(١)، وهناك اقتتلوا بضعة عشر يوما قتالا شديدا، فقد كانت الكريون آخر سلسلة من الحصون قبل الإسكندرية، وإليها فر المنهزمون فى سطليس، وانضموا إلى سائر جند الروم فى مسلحة الكريون، وعليهم تيودور، الذى استمات فى الصمود أمام العرب، إذ أدرك أنهم إن ينهزموا بالكريون تنكشف العاصمة أمام العرب، فرأى الحيلولة بين الغزاة وبلوغ الإسكندرية خيرا من الدفاع عنها. وأخذ الروم ينسلون من الإسكندرية إلى الكريون، وأقبلت حاميات من سخا وخيس وبلهيب.

والتقى عمرو بالروم واشتد القتال شدة لم تؤلف فيما سبقها من المعارك، وظلوا هكذا حتى فصل بينهم الظلام، ثم استحر القتال فى صبيحة اليوم الثانى، ثم انفصل الفريقان فى آخره، وظل القتال هكذا دائرا بضعة عشر يوما، ترجح فيه كفة المسلمين تارة وترجح كفة الروم تارات، وأظهر الروم من ضروب البراعة والبسالة وشدة البأس وصلابة العود ما أدخل الروع فى قلوب المسلمين، حتى لقد صلى عمرو صلاة الخوف ركعة وسجدتين مع كل طائفة من جنده، ولكن هذا لم يذهب عزم المسلمين ولم يضعف روحهم، بل زادهم صلابة وإيمانا، ثم أنزل الله نصره وتم فتح الله للمسلمين، وقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة، وأتبعوهم حتى بلغوا الإسكندرية(٢).

وكان الروم قد تحصنوا بالإسكندرية. وقدر عمرو أن هزيمتهم فى الكريون لابد أن تكون قد أدخلت الروع إلى نفوسهم، فلم يتردد عندما رأى ترقب الجند وحماستهم، فأمرهم أول مقدمهم باقتحام أسوار المدينة وأبراجها، ولم يشك المسلمون فى أن المدينة ستفتح أبوابها لقاء هجمتهم، فاندفعوا مهللين فلم يرعهم إلا الحجارة العظيمة تتساقط عليهم مقذوفة من المجانيق المنصوبة فوق أسوار المدينة، ذلك أن تيودور أيقن أن الظفر

(*) ستة أميال جنوبى دمنهور.

(١) المسالك ، ص٩١.

(٢) ابن عبد الحكم ص٦٦، بتلر ص٢٥١.

سينسى المسلمين الحيطة، فيندفعون إلى مهاجمة المدينة، فأدخل الجيش حصون المدينة وأخلى ضواحيها، وأقام القاذفين على أسوارها، فعاود عمرا حذرُه وانسحب وراء مرمى المجانيق، فعسكر بجنده وتأمل عمرو موقفه، فالمدينة حصينة حصانة طبيعية، يحميها البحر من شمالها والإمدادات مستمرة عن طريقه[1]، وبحيرة مريوط تحميها من الجنوب، وترعة الثعبان تدور حولها من الغرب، وليس أمامه إلا الشرق وهو الطريق بينها وبين الكريون، ومن هذه الناحية كانت الحصون والأسوار أشد مناعة. واستقر رأيه أن يقف بعيدا عن مرمى المجانيق، فإذا طال الحصار بالروم شعروا بما فى ذلك من مذلة فيخرجون، ويتمكن المسلمون منهم، فأقام بجنده بين الحلوة وقصر فاروس شهرين كاملين[2]، ثم نقل عسكره إلى المقس، فخرجت إليه الجند من ناحية البحيرة، فواقعوه وقتلوا من المسلمين نفرا بكنيسة الذهب[3]، وارتدوا إلى حصونهم. وظل الروم محصورين لا يخرجون، وبقى المسلمون قبالتهم لا يريمون، لكن عمرا رأى أن الموقف قد يتجمد على هذا النحو، مما يدفع إلى نفوس جنده السأم، ويشعرهم بالعجز عن مناجزة عدوهم. وقد اهتدى إلى أن يحقق أغراضه جميعا، فيزيل سأم جنده بأن يرسل كتائب تجوس خلال بلاد الدلتا تطارد الروم فيها، وأن تبقى كثرة الجند على حصار الإسكندرية وبذلك يستكمل أيضا ما كان بدأه من بعوث، وهو على حصار بابليون.

وظلت كثرة الجند أمام الإسكندرية ولم يتغير الموقف، إلا ما كان يحدث من مناوشات طفيفة لا تبلغ أن تكون حربا. على أن إمدادات الإسكندرية عن طريق البحر ما لبثت أن توقفت بعد قليل، فقد شغل أهل بيزنطة بما ساد بلاطهم من اضطراب، وما حل بعاصمتهم من انتقاضات بعد موت هرقل[4]، وتزعزعت الروح المعنوية لحماة الإسكندرية، وقت فى أعضادهم توقف الأمداد، وازدادت مخاوفهم من أن يتغلب العرب على البلاد الساحلية، فيقطعوا عنهم ميرتها، بعدما وصل إليهم من انتشارهم فى الدلتا ومصر العليا والسفلى.

---

(١) ابن عبد الحكم ص٦٨-٦٩.

(٢) ابن عبد الحكم ص٦٧.

(٣) ابن عبد الحكم ص٦٨.

((٤) بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ج٢ ص١١٩-١٢٠.

وفى هذه الفترة كان الخليفة بالمدينة يتميز غيظا من إبطاء الفتح، الذى كان يتنسم أنباءه يوما إثر يوم، وراح يعلل لصحابته إبطاء الفتح بما أحدث المسلمون، وبما أغرتهم به خيرات مصر من تعلق بالدنيا وشره إلى نعيمها، فكتب إلى عمرو كتابا ضمنه هذا ودعاه فيه إلى أن يحض الجند، وأن يرغبهم فى الصبر وحسن النية، وأن يقدم الأربعة الذين عد كل واحد منهم بألف رجل حينما أمده بهم.

وقرأ عمرو الكتاب فى جنده، ودعا بالأربعة الذين ذكروا فقدمهم، وأمر الناس أن يتطهروا وأن يصلوا ركعتين، ثم يرغبوا إلى الله عز وجل ويسألوه النصر على عدوهم، ثم دعا بعبادة بن الصامت فعقد له وأولاه قتال الروم، ثم انطلق إلى بابليون، يدير حركة بعوثه إلى أقاليم الدلتا والصعيد.

وفتح الله الإسكندرية على يدى عبادة ودحر الروم، وسارع المقوقس إلى عمرو فى بابليون، ليعقد معه معاهدة الإسكندرية التى تعرف بمعاهدة بابليون الثانية، تمييزا لها عن معاهدة بابليون الأولى[1]. وقد نص فيها على أن يرجع المسلمون عامهم هذا حتى يرحل عنها جيش الروم، خلال أحد عشر شهرا تنتهى فى أواخر سنة ٢١هـ.

ولما دخل المسلمون الإسكندرية ذهلوا لروعة عمارتها ومدارسها ومكاتبها وقبابها ومنارتها ومسلتها ومعابدها[2]، وأخذوا بعد ذلك يستقرون بمصر، ويبنون الفسطاط والخطط، ويرسلون البعوث لإتمام فتح مصر جميعها. وأخذوا كذلك فى حفر قناة تراجان، وما تمضى ثلاث سنوات حتى يحيك قسطنطين بن هرقل مؤامرة تستهدف استنقاذ مصر، بقيادة (منويل) الخصى الأرمنى، الذى نزل الإسكندرية فى أسطول بيزنطى كبير، فاحتل الإسكندرية ونكل بالمسلمين تنكيلا. ويضطر عثمان بن عفان خليفة المسلمين حينذاك إلى أن يصلح الأمر بما صلح به أوله، فاستدعى عمرو بن العاص ذلك الفاتح الرائد، ليعين والى مصر عبدالله بن سعد بن أبى سرح لدرايته بحرب الروم، بناء على رغبة أهل مصر[3].

---

(١) سيدة إسماعيل الكاشف، مصر فى فجر الإسلام ص١٤.

(٢) بتلر ص٣١٩.

(٣) البلاذرى ص٢٣٣.

وبرغم استماتة الروم فقد أذاقهم عمرو نفس الكأس، وهزمهم هزيمة منكرة عند نقيوس، وعاد منويل طائرا إلى الإسكندرية فتحصن بها، ونصب المجانيق على أسوارها[1]. ويقف عمرو أمام هذه الأسوار التى دوخته من قبل، ليقسم أن يسوى التراب بها، وأن يجعلها كبيت الزانية يؤتى من كل مكان، واحتال حتى استمال حراس المدينة، ثم أعمل السيف فى حاميتها وقتل منويل، وكان ذلك فى السنة الخامسة والعشرين للهجرة[2].

وعلى الرغم من ذلك فإن الروم لم تيئسهم هزيمتهم، فقد حاولوا بعد تسع سنوات فى عهد الإمبراطور قسطانز أن يعاودوا هجماتهم البحرية، وأعدوا لذلك أسطولا جديدا، غير أن المسلمين كانوا قد ركبوا البحر وحذقوا حروبه، فأوقعوا بالأسطول البيزنطى، ولقيت فلوله عاصفة هوجاء أتت عليها، وهكذا استتب الأمر فى مصر للمسلمين[3].

***

خضع للمسلمين إقليم مصر، من الإسكندرية إلى أسوان، ورأى عمرو أن تتجه بعض بعوث الجيش إلى الجنوب لتأمين الحدود، حيث تضرب القبائل فى أرض النوبة، تلك الأرض التى تشبه أرض شبه الجزيرة، إذ تغلب عليها الصحراء، وتربطها بها صلات تجارية دفعت بعض التجار العرب فى الجاهلية إلى التسرب إليها.

ولعل هذا الشبه وهذه الصلات، وما كان من غلبة المسلمين على مصر، ومتاخمتهم لأرض النوبة هى التى أغرتهم بهذه البعوث.

ويروى البلاذرى، أن جيش المسلمين بقيادة عقبة بن نافع الفهرى اضطر أن يعود بعد معركة قاسية، أصابت فيها سهام أهل النوبة أحداق المسلمين، فقفلوا بالجراحات، وذهاب الحدق من جودة الرمى، وسمى أهل النوبة برماة الحدق[4]. وظل القتال ينشب بعد ذلك حتى انتهى إلى الصلح على هدية عدة رءوس منهم يؤدونها إلى المسلمين فى

---

(١) النجوم الزاهرة ص٦٥- ٦٦.

(٢) المقريزى ج١ ص١٦٧.

(٣) بتلر ص٤٢٤.

(٤) الطبرى ١/٥/٢٥٩٣ وسكت عن ذكر القائد.

كل سنة، ويهدى إليهم المسلمون كل سنة طعاما مسمى، وكسوة من نحو ذلك[1]. وقد أمضى هذا الصلح عثمان بن عفان، فى ولاية عبدالله بن سعد بن أبى سرح، وأقره الولاة والأمراء من بعده نظرا منه للمسلمين وإبقاء عليهم[2].

ويبدو من هذا أن الجنوب قد استعصى، حتى إن الخليفة يضطر إلى قبول هذا الصلح إبقاء على المسلمين. وهذا يوضح ما كان من صدوف المسلمين عن هذا الميدان، إذ لم يجدوا ما يغريهم فيه، فمضوا عنه يجوبون البلاد فى غربى مصر، ويجهزون على ما تبقى من ولايات بيزنطة فى هذا الصقع من الأرض.

***

كان ضروريا أن تؤمن حدود مصر الغربية ضد هجمات الروم، إذا حدثتهم أنفسهم باستردادها. فحدود مصر الغربية تلاصق ولاية ليبيا البيزنطية فى هذا الوقت، وكانتا تحت الحكم البيزنطى سواء، وكثيرا ما كان إقليم مريوط يضاف إلى ليبيا تعويضا عن إقفارها[3].

فسار عمرو فى أواخر سنة ٢١هـ بعد فتح الإسكندرية فى كتيبة من فرسانه حتى وصل إلى برقة، وهى حد مصر من الغرب، ولم يلق المسلمون فى فتحها كبير كبد، إذ لم يذهب إليها غير الخيل، ويغلب أن تكون قد فتحت صلحا[4]، ثم بعث عمرو عقبة بن نافع الفهرى فافتتح زويلة صلحا، وأصبح ما بين برقة وزويلة ملكا للمسلمين[5]. وسار عمرو حتى وصل إلى طرابلس، وحاصرها عدة أسابيع إلى أن استسلمت، بعد أن كاد الجوع وشدة القتال يهلكان أهلها، وعاد من ثم إلى برقة، فكتب إلى أمير المؤمنين عمر (إنا قد بلغنا طرابلس، وبينها وبين إفريقية (تونس) تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا فى غزوها فعل). فكتب إليه عمر ينهاه، ويأمره بالوقوف عند هذا الحد، فعاد من هناك

(١) نفس المرجع..
(٢) نفس المرجع.
(٣) بتلر ص١٠.
(٤) السيوطى ج١ ص٦٣.
(٥) الطبرى ١/٥/٢٦٤٦ واليلاذرى ص٢٢٤.

كارها، واستخلف عقبة بن نافع الفهرى، الذى صار إليه بعد ذلك فتح المغرب[1]. وإن كان فتح برقة وطرابلس مؤمنا لحدود مصر، فإنه كان من ناحية أخرى مقدمة للانسياح فى إفريقية. وقد ساعد على هذا أن هاتين البلدتين كانتا هادئتين، وكان أهلهما يعشون بخراجهم إلى والى مصر، من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث، ولم تدخل بلادهم فتنة[2].

وأخذ المسلمون يتوسعون فى المناطق الداخلية فى برقة وطرابلس، فاستولوا على فزان وودان، وتولى الأولى بشر بن أبى أرطاة، والثانية عقبة بن نافع. وكان ذلك فى أوائل سنة ٢٣هـ. وتقدم المسلمون غربى طرابلس إلى سبرت[3]. ومن ثم أخذ اسم عقبة بن نافع يتلألأ فى هذه المناطق، وتوالت البعوث الإسلامية للاستطلاع. فكان عمرو يرسل الجريدة من الخيل فتصيب الغنائم ثم ترجع[4]. وكذلك فعل عبدالله بن سعد بن أبى سرح[5].

وفى عهد عثمان استأذن عبدالله بن سعد بن أبى سرح فى فتح إفريقية سنة ٢٥هـ فأذن الخليفة له بعد المشورة، وانتدب الناس، وأمر عليهم الحارث بن الحكم، إلى أن يقدموا على عبدالله فيكونَ له الأمر[6].

وتقدم عبدالله فى عشرين ألفا، حيث دارت معركة عنيفة بين المسلمين بقيادته وجيش جرجير، وانتصر المسلمون بعدما قتل عبدالله بن الزبير جرجير، واضطر جيشه للهرب، وتعقبه المسلمون وبثوا سراياهم فى المنطقة، فعادوا بغنائم كثيرة. ولما رأى ذلك رؤساء إفريقية طلبوا إلى ابن أبى سرح أن يصالحهم على الخروج من بلادهم، وأن يأخذ فى مقابل ذلك أموالا، فقبل ورجع إلى مصر، دون أن يولى أحدا عليها، أو يتخذ

(١) البلاذرى ص ٢٣٣.
(٢) البلاذرى ص٢٢٤.
(٣) ابن عبد الحكم ص١٧٢.
(٤) ابن عبد الحكم ص١٧٣.
(٥) ابن عبد الحكم ص١٧٣.
(٦) ابن عبد الحكم ص١٨٣.

قيروانا[1] مكتفيا بالريادة والاستطلاع، وما حاز عن غنائم، وربما كان سبب هذا الإجراء وصول أنباء حملة قسطنطين إليه.

ثم لا نسمع شيئا عن هذا الميدان طوال حكم الراشدين، حيث لعبت الأحداث دورها فى تعطيل الفتح، وأسهمت الفتنة فى صرف المسلمين عنه. ولكن عندما يجتمع الأمر لمعاوية، ويتولى مصر معاوية بن خديج يتجه المسلمون من جديد إلى إفريقية ليدخلوها فى إطار الدولة الإسلامية.

***

(١) ابن عبد الحكم ص١٨٣.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثانى

الشعر فى الفتوح الشرقية

١ ـ كثرة الشعر على ألسنة الفاتحين

يكاد شعر الفتوحات الإسلامية كله أن يكون وليد الفتوح الشرقية وحدها، ذلك أن هذا الشعر كثير كثرة مطلقة إذا ما قورن به شعر الميادين الأخرى؛ ولهذا يجمل بنا أن ننعم النظر فى ظروف هذه الفتوحات بالذات، وأن نتعرف إلى هؤلاء الفاتحين الذين هاجروا إلى هذا الميدان من شبه الجزيرة العربية، علّنا نجد تفسيرا لهذه الظاهرة، مما يعيننا على تفهم شعرهم والظروف التى صدر فيها، ومحاولة التعرف على الفاتحين فى هذه المناطق ليست أمرا هينا ولا يسيرا، لكثرة الجيوش التى اندفعت إلى الفتح متتابعة وكثرة الإمدادات التى لحقت بها، ولانعدام الأسس التى كانت تصنف بوحيها هذه الجيوش وتلك الإمدادات.

والذى يبدو جليا للدارس أن الجيوش الإسلامية لم تكن تصنف على أية أسس أو داخل إطار معين، فكان يحدث أن يبعث الخليفة إلى البلدان والقبائل يستنفرها ويرغبها فى الجهاد، فتتوافى إليه الجموع من هنا وهناك، فيصرفها فى الوجهة التى تمليها عليه ظروف الأحداث وطبيعتها. وتذكر بعض الروايات أن أمير المومنين كان إذا اجتمع إليه جيش من أهل الإيمان أمر عليهم رجلا من أهل العلم والعفة[1]، وبرغم هذا فإنه يمكن للباحث أن يلاحق هذه الجيوش وتلك الإمدادات ملاحقة دقيقة، حتى يستطيع أن يرسم صورة تقارب الأصل أو تدل عليه، وتلقى على هذه الظاهرة بعض الضوء.

كان أول من مهد للفتح الإسلامى فى العراق المثنى بن حارثة الشيبانى، الذى انضم إلى العلاء بن الحضرمى فى مقاتلة المرتدين، على رأس من بقى على الإسلام من أهل هذه النواحى التى تساحل الخليج الفارسى إلى الشمال، وقد رأينا أنه نزل فى قبائل العرب الذين يقيمون بدلتا النهرين فتحدث معهم وتعاهد، ولا ريب فى أن هذه القبائل التى

---

(١) الطبرى ١/ ٥/ ٢٧١٤.

تعاهد معها وشكل منها كتيبته كانت من بكر وإياد وتغلب والنمر ولخم سكان هذه المناطق، فضلا عن قبيلته شيبان التى كانت تنزل البحرين.

وقد صدع خالد بن الوليد بأمر أبى بكر الذى ألقاه إليه وهو باليمامة[1] عقب فراغه من مسيلمة، فنهد فى اللواء الذى عقده له أبو بكر لحرب المرتدين فى بنى أسد وبنى تميم، وهو لواء اختاره خالد بنفسه، فكان من أمنع الألوية وأقواها، وكان به خيرة المقاتلة من المهاجرين والأنصار[2]. وانضم إلى هذا اللواء قوم عدى بن حاتم من طيء، فقاتلوا طليحة بن خويلد مع المسلمين. وكذلك فعل كثرة جديلة، فلحق بالمسلمين منهم ألف راكب[3] ولقد كثر فى هذا اللواء القتلى من الحفاظ، فقل عدده وتناقص بعد ذلك، حينما أمر أبو بكر بتسريح من يرغب فى الرجوع، وكثرتهم من أهل المدينة، وبألا يستفتح بمتكاره. وأمد أبو بكر خالدا حين استمده بالقعقاع بن عمرو التميمى، ولما سأله الناس أتمد رجلا قد انفض عنه جنده برجل واحد!؟ قال: «لا يغلب جيش فيه مثل القعقاع، إن صيحته فى الجيش بألف رجل»[4]، وبعث إليه مع القعقاع بأن يستنفر من قاتل أهل الردة، ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ، فاستنفر خالد الأمراء الأربعة: حرملة وسلمى والمثنى ومذعور، وكانوا فى ثمانية آلاف من ربيعة ومضر، إلى ألفين كانوا معه، وقدم بهم على جند المثنى، ويذكر أنه كان ثمانية آلاف[5].

أما عياض بن غنم الذى كان عليه أن يأتى العراق من أعلاه ليلتقى مع خالد فى الحيرة[6] فإنا لا نعلم شيئا عن تكوين جنده، ولا تفيد الروايات عنه خبرا، وإن كان المظنون أن كثرته كانت من ربيعة ومضر.

وبطبيعة الحال لم تبق هذه النواة على حالتها الأولى، إذ انضم إليها وانسلخ عنها جند كثيرون، والتقى خالد بهذا الجيش مع الفرس فى سلسلة من المعارك، انتصر فيها

---

(١) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٢١.
(٢) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٢٢.
(٣) هيكل ، أبو بكر ص٢١٩.
(٤) الإصابة ج٥ ص٢٤٤.
(٥) هيكل ، أبو بكر ص٢١٩.
(٦) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٢١.

المسلمون حتى دخلوا الحيرة، وهناك وزع عماله وخلف القعقاع على الحيرة والزبرقان بن بدر على الأنبار[1]، ثم خرج لإغاثة عياض بدومة الجندل، وارتد إلى الحيرة بعد أن أدى مناسك الحج، حيث تلقى كتابا من أبى بكر يندبه إلى الشام، وفصل خالد فى نصف الجند[2]، وحرص على أن يكون معه صحابة الرسول ﷺ، حتى أحفظ المثنى الذى خلفه على أمر العراق فيمن كانوا معه من قبل على الأرجح[3].

وبرغم أن المثنى انتصر بهذا الجيش على الفرس فى بابل إلا أنه وجد نفسه بحاجة إلى الأمداد، فخلف بشير بن الخصاصية وانطلق إلى المدينة، حين كان الخليفة الأول يجهز الجيوش لفتح الشام، إثر كتاب خالد بن سعيد[4].

وكان الخليفة مريضا، ويبدو أن المدينة كانت تعانى هى الأخرى نقصا فى الرجال، فأخذ المثنى يدافع عن وجهة نظره أمام أبى بكر فى أن يؤذن له باستنفار من ظهرت توبته من المرتدين[5]. ولم يمهل القدر الخليفة ليندب الناس مع المثنى، فلحق بربه بعد أن أوصى عمر بأن يفعل، وأن يرد كتيبة خالد إلى العراق ــ إن فتح الله عليهم ــ فإنهم أهله وأحق به[6]. واستفتح عمر عهده بتنفيذ وصية أبى بكر، فرفع الحظر عمن عادوا إلى الإسلام من المرتدين، واستمالهم كى يسارعوا إلى التطهر بجهادهم من حوبة ردتهم. وأخذ عمر يندب الناس أياما أربعة، وكان أول من انتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفى، فأمّره عمر على ألف من الأنصار[7]، وأقبل المتطهرون من كل صوب، فرمى بهم عمر إلى العراق والشام[8].

وفى هذه القوات يسير أبو عبيد ليلحق بالمثنى وجنده بخفان، حيث يخوضان ضد الفرس معارك منتصرة، حتى كانت معركة الجسر وقُتل أبو عبيد، وأصيب فى أربعة آلاف

(١) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٥٨، ٢٠٦٢ ، ٢٠٦٧.
(٢) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٨٩.
(٣) الطبرى ١/ ٤/ ٢١٢٢.
(٤) الطبرى ١/ ٤/ ٢٠٨٢.
(٥) الطبرى ١/ ٤/ ٢١٢٠.
(٦) نفس المرجع .
(٧) الطبرى ١/ ٤/ ٢١٦١.
(٨) الطبرى ١/ ٤/ ٢١٦٥.

من جنده بين قتيل وغريق وجـريح، وفر ألفان بينما ترك المثنى فى ثلاثة آلاف[1] انسحب بهم إلى أليس، وبعث يستمد عمر، ولم يكتب بهذا، فـبعث فيمن يليه من قبائل العرب، حيث توافى إليه جمع عظيم من نصارى بنى النمر.

وأخذ عمر يندب الناس، ويلقى فى ذلك حرجا وقسوة، وقد كان وجه فارس من أشـد الوجوه عليـهم وأكـرهه لهم[2]، وزاده يوم الجـسر جـهامـة وقسـوة. وتمكن من استـصلاح جرير بن عـبدالله البجلى فى قـومه، بعد أن جـمعهم من القـبائل وأراد بهم الشام[3]، ورأى الناس ما صنع بنو بجيلة فحذوا حذوهم، وكان فُرَّار الجسر فى مقدمتهم، ثم تابعهم بنو الأزد وعليهم عرفجة بن هرثمة البارقى وبنو كنانة وعليهم غالب بن عبدالله، وكانوا جميعا سبعمائة[4]، ثم تبعهم نفر من الرباب أمر عليهم هلال بن علفة التميمي[5]، وتحمل قوم كثيرون من مخـتلف القبائل فى نسائهم وأبنائهم، منهم ابن المثنى الجشمى فى قوم من بنى سعد، وعبدالله بن ذى السـهمين فى أناس من خثعم، وربعى بن عامر وابنه شبث فى أناس من بنى حنظلة، وبقوم من بنى ضبـة عليهم ابن الهوبر والمنذر بن حسان، وبأناس من عبد القيس عليهم قـرط بن جماح العبدي[6]، وبعث إليه بأنس بن هلال فى أناس من النمر، وبعبـد الله بن كليب بن خالد فى أناس من تغلب[7] وحقق المثنى بهذه الأمداد انتصارات محققة فى الـبويب. وكتب عمر إلى المثنى ــ بعد أن ثار السواد ــ بألا يدع فى ربيعة ولا مـضر ولا حلفائهم أحدا من أهل النجدات ولا فارسـا إلا جلبه، فإن جاء طائعا وإلا حشره[8]. وكتب إلى عماله على الكور والقبائل بألا يدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو رأى إلا انتخبـوه. فأتته القبائل القريـبة من مكة والمدينة، ووافى المثنى من كان قريبا منه[9].

---

(١) الطبرى ١/ ٤/ ٢١٨٠.
(٢) الطبرى ١/ ٤/ ٢١٥٩.
(٣) الطبرى ١/ ٤/ ٢١٨٣.
(٤) الطبرى ١/ ٤/ ٢١٨٨.
(٥) نفس المرجع.
(٦) الطبرى ١/ ٤/ ٢١٨٨، ٢١٨٩.
(٧) الطبرى ١/ ٤/ ٢١٩٠.
(٨) الطبرى ١/ ٤/ ٢٢١٠.
(٩) الطبرى ١/ ٤/ ٢٢١١.

ووقف المثنى فى جنده ــ بعد أن أجمع الفرس على يزدجرد واستعدوا للثأر ــ يتوقع الثورة به، فكاتب عمر بذلك، فلما وصل إليه الكتاب قال: «والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب»، وخرج المثنى بجنده كأمر عمر، فتفرقوا فى تخوم العراق ونزلوا بذى قار، ولم يمهل القدر المثنى ليلقى سعدا، وإن وجد ابن أبى وقاص وصية تركها له.

وقد جاء سعد من هوازن التى كان على صدقاتها فى ألف فارس[1]، ويغلب على الظن أنهم كانوا من قيس عيلان، وعليهم بشر بن عبدالله الهلالى، وثلاثة آلاف من السراة واليمن، وكان أهل السراة سبعمائة، وكان أهل اليمن ألفين وثلاثمائة، منهم النخع ابن عمرو فى جمع من نسائهم وذراريهم يبلغ ألفا وسبعمائة، فصل نصفهم إلى الشام[2]. وبينما سعد فى طريقه أمده عمر بألفى يمانى، وألفى نجدى من غطفان وسائر قيس، وذلك قبل أن يصل إلى زرود[3]، فصار جنده ثمانية آلاف إلا قليلا.

وكان جيش المثنى عشرين ألفا: ثمانية آلاف من ربيعة، منهم ستة آلاف من بكر بن وائل، وألفان من سائر ربيعة، وأربعة آلاف كثرتهم من حلفاء المثنى والذين بقوا معه بعد أن فصل خالد، وأربعة آلاف كانوا معه من كتيبة أبى عبيد، وألفان من بجيلة، وألفان من طيىء[4].

وقبل أن يصل سعد إلى شراف لحق به الأشعث بن قيس وطليحة بن خويلد وعمرو بن معديكرب، كل على رأس قبيلته فى ألف وسبعمائة من أهل اليمن[5].

وكان عمر قد كتب إلى أبى عبيدة فى الشام بصرف أهل العراق كوصية أبى بكر، وهم ستة آلاف[6]. وهكذا يتم الجيش قبل القادسية وفى أثنائها ستة وثلاثين ألفا أو نحوها.

وعندما استقر سعد وجنوده بعد الانتصارات الضخمة فى المدائن، وبعد أن جاء فتح جلولاء وحلوان قدمت الوفود على عمر، فأحس بتغير أبدانهم وألوانهم، وعرف أن

---

(١) الطبرى ١/ ٤/ ٢٢١٦.
(٢) الطبرى ١/ ٤/ ٢٢١٩.
(٣) الطبرى ١/ ٤/ ٢٢٢١.
(٤) الطبرى ١/ ٤/ ٢٢٢١.
(٥) الطبرى ١/ ٤/ ٢٢٢٢.
(٦) الطبرى ١/ ٤/ ٢٢٢٧.

سبب هذا وخومة البلاد وعدم التلاؤم بينهم وبينها، وما يلقون فيها من الذباب والغبار والوخومة[1]، فأمر بارتياد الأرض، بحثا عن المواقع التى تتناسب مع العرب. فالعرب لا يصلحها من البلدان إلا ما أصلح البعير والشاة[2].

وظفر الرواد بموقع الكوفة، وتم تمصيرها فى المحرم سنة ١٧هـ وفى نفس العام بنى المسلمون الأبنية فى البصرة، التى كانوا قد نزلوها من قبل. وكتب سعد إلى عمر لما نزل الكوفة بأنه خير المسلمين بالمدائن، فمن أعجبه المقام تركه كالمسلحة، فبقى أقوام من الأفناء أكثرهم بنو عبس[3]، وإن كانوا قد انصرفوا بعد ذلك إلى الكوفة وغيرها[4].

وخططت الكوفة تخطيطا قائما على أساس من توزع القبائل، فتكونت مجموعات من الناس، يسميها المؤرخون بالأسباع، فصارت كنانة وحلفاؤها من الأحابيش وجديلة ــ وهم بنو عمرو بن قيس عيلان ــ سبعا، وصارت قضاعة ــ ومنها يومئذ غسان بن شبام وبجيلة وخثعم وكندة وحضرموت والأزد ــ سبعا. ومذحج وحمير وهمدان وحلفاؤهم سبعا. وتميم وسائر الرباب وهوازن سبعا. وأسد وغطفان ومحارب والنمر وضبيعة وتغلب سبعا. وإياد وعك وعبد القيس وأهل هجر والحمراء سبعا[5].

وواضح أن هذه الأسباع تنقص سبعا، ويظن ماسينيون أنه كان خاصا بقبيلة بكر من شيبان[6]، وما حدث بالبصرة شبيه بما حدث فى الكوفة، وإن كان قد اتبع فيها نظام الأخماس. وكان لتميم الشأن الأول فى تكوينها. وقد صارت خمسا، وفيها ضبة والرباب، بينما صارت عبد القيس خمسا، وبكر بن وائل خمسا، والأزد خمسا، وأهل العالية من قريش وكنانة وقيس عيلان والأنصار وطوائف من قبائل أخرى[7]. وبرغم أن هذه الأسباع وتلك الأخماس قد تكونت على أساس القبائل فإنها قد شكلت خطوة جديدة فى سبيل بناء مجتمع جديد، يستشعر إحساسا وجدانيا أكثر شمولا من الإحساس بالقبلية.

---

(١) الطبرى ١/ ٥/ ٢٤٨١.

(٢) الطبرى ١/ ٥/ ٢٤٨٤.

(٣) الطبرى ١/ ٥/ ٢٤٨٧.

(٤) الطبرى ١/ ٥/ ٢٤١٤.

(٥) الطبرى ١/ ٥/ ٢٤٩٥، البلاذرى ص٢٧٦.

(٦) خطط الكوفة ترجمة المصعبى ص١١ والطبرى ج٥/ ٢٤٩٥.

(٧) الطبرى ١/ ٥/ ٢٣٧٧.

حقا إن الجيوش والإمدادات لم تكن تصنف حين انتدابها على أى أساس قبلى كما رأينا، وإن كـان من الممكن تجمع أعـداد هائلة من قبـيلة واحدة فى جند واحـد. والذى يلفت النظر أن إحساسا وجدانيا شاملا قد استحوذ على جميع المنازع القبلية وصهرها فى بوتقة الجهاد فى سـبيل الله، وإن لم يستطع القضاء على هذه المنازع، وإنما حجـبها لبعض الوقت فترات تقصر أو تطول، حتى كان تخطيط هذين المصرين على أساس القبائل، فإذا بأحاسـيس جديدة تنشأ بحكم طبـيعة الحـياة فى المدينة، وبحكم علاقـات الجوار والعطاء والخضوع لعوامل واحدة.

فكانت الكوفة والبصرة القـاعدتين اللتين صدرت عنهما كل العمليـات الحربية بعد استقرار المسلمين بهمـا. وكان أن استشعر المسلمون فيها شـعورا مزدوجا بأنهم أفراد من قبائل، وأفراد فى مدينة معـا. وأخذ الإحساس بالمدينة يلف المسلمين بهذا الرباط المدنى، ويطبع أهل كل مـصر بطوابع خاصـة، فهناك مـغازى الكوفة، ومـغازى البـصرة، وأهل الكوفة، وأهل البصرة، وهناك خلافات على تعديل الفـتوح فيما بينهم، وخصومات على الانصياع لقائد من مصر آخر. ويكفى لاستجلاء هذه الأحاسيس ما يروى عن أهل الكوفة من أنهم إذا قاتلوا أهل البصرة انحازت كل قبيلة ناحية، وقاتلت مثيلتها فى الجانب الآخر، فَيَمَنُ الكوفة يقاتلون يَمَنَ البصرة، وربيعة الكوفة تقاتل ربيعة البصرة، وهكذا[1].

وقد تسنى للكوفـة والبصرة أن يحـققا انتـصارات كبـيرة فى فتـوح الجناح الشرقى للعراق وفارس، وتحديد حدود الإمبراطورية الإسلامية فى هذا الميدان.

وجلى أن الفاتحين الذين حققوا هذا العمل الكبير كانت كثرتهم من عرب الشمال، الذين نعرف لهم شهرة عامة بالشعر، الشعر الثرى الذى لا يتيسر لأقرانهم الفاتحين من أبناء الجنوب، وقـد أدى هذا إلى أن تنصرف كـثرة شـعر الفـتح إلى تصوير أحـداث الفـتوح الشرقية، حتى لا يغـادر منها شيئا، وحتى يكاد يكون سجلا تاريخيا لهـا، ووثيقة وجدانية لمشاعر الفاتحين.

ونحن حينما نستعرض تصوير شعر الفتح لأحداث الفتوح الشرقية، سيخيل إلينا أن كل الفاتحين كانوا شعراء دون استثناء، إذ أصبح الشعر حظا شائعا بينهم جميعا على تفاوت فى هذا الحظ.

---

(١) الطبرى ١/ ٥/ ٢٥٣٦.

٢ ـ الشعر في العراق

انطلق الشعر على ألسنة الفاتحين في العراق مع أول ضربة سيف، وقد أحاط بالمعارك والأحداث إحاطة، بحيث يمكن أن يعد وثيقة تاريخية لها خطرها. وهو من حيث تصويره لحياة المجاهدين ومشاعرهم، وتصويره لمشاعر المقاومين أيضا يمكن أن يعد وثيقة وجدانية رائعة لهذا الحدث الفذ في تاريخ الإسلام والمسلمين.

واكب الشعر أحداث الفتح منذ أول التقاء، كان في الحفير أو كاظمة بين خالد وهرمز، حيث دارت الدائرة على الفرس، ثم انتصر المسلمون على قارن بن قريانس في وقعة المذار أو الثني، وأكثروا القتل في جنده، فتغنى القعقاع بن عمرو التميمي بهذا النصر قائلا:

فنحن وطئنا بالكواظم هرمزا ... وبالثني قرنى قارن بالجوارف[1]

وكذلك يفعل الأسود بن قطبة، فيعير عرب القبائل الذين انضموا للفرس بسبي المسلمين نساءهم وافتضاحهم فيقول:

لعمرو أبي بجير حيث صاروا ... ومن آداهم يوم الثنيّ

لقد لاقت سراتهم افتضاحا ... وفتنا بالنساء على المطي

ألا ما للرجال فإن جهلا ... بكم أن تفعلوا فعل الصبي[2]

وعندما يجتمع العرب الموتورون مع الفرس يوم أُلَّيس، ويرى المسلمون منهم نكالا - حتى يصلي خالد صلاة الخوف ـ يصور الأسود بن قطبة التميمي هول المعركة، وبسالة المقاومين فيقول:

لقينا يوم أُلَّيس وأمغي ... ويوم المقر آساد النهار

فلم أر مثلها فضلات حرب ... أشد على الجحاجحة الكبار

قتلنا منهم سبعين ألفا ... بقية حزبهم نخب الإسار

سوى من ليس يحصى من قتيل ... ومن قد غال جولان الغبار[3]

---

(١) الطبري ١/ ٤/ ٢٠٤٩.

(٢) ياقوت ج١ ص٩٣٧.

(٣) ياقوت ج١ ، ص٣٦٣.

ويصور عاصم بن عمرو ثبات المقاومين من الفرس يوم العقيق فيقول:

ألم ترنا غداة المقر فينا ... بأنهار وساكنها جهارا

قتلناهم بها ثم انكفأنا ... إلى فم الفرات بما استجارا

لقينا من بنى الأحرار فيها ... فوارس ما يريدون الفرارا[1]

وعندما وصل المسلمون إلى الحيرة ودخلوا قصورها استخفهم الطرب، فانطلقت أغنيات النصر نشوى، تفخر ببلائهم الذى استحقوا به الظفر، يقول القعقاع بن عمرو:

ويوم أحطنا بالقصور تتابعت ... على الحيرة الروحاء إحدى المصارف

حططناهم منها وقد كان عرشهم ... يميل به فعل الجبان المخالف

رمينا عليهم بالقبول وقد رأوا ... غبوق المنايا حول تلك المحارف

صبيحة قالوا: نحن قوم تنزلوا ... إلى الريف من أرض العريب المقانف

والشاعر هنا يشير إلى ما كان من مجادلة خالد لأهل الحيرة، فى نقمتهم على بنى عمومتهم من العرب، وما كان من انتسابهم إلى العرب. والشاعر يكشف هذا اللجاج الذى فسروا به موقفهم، وأنهم لم يعترفوا بهذا النسب إلا تحت وطأة السيوف.

وهذا عاصم بن عمرو يصف بلوغ المسلمين الحيرة، وإحاطتهم بقصورها فيقول:

صبحنا الحيرة الروحاء خيلا ... ورجلا فوق أثباج الركاب

حصرنا فى نواحيها قصورا ... مشرفة كأضراس الكلاب[2]

ويمضى خالد بالمسلمين إلى الأنبار، وفى الطريق إليها يتأمل عاصم بن عمرو جموع المسلمين التى حشدها خالد ليأتى بهم من ألبوا عليهم من أهل الأنبار فيقول:

جلبنا الخيل والإبل المهاري ... إلى الأعراض أعراض السواد

ولم تر مثلنا كرما ومجدا ... ولم تر مثلنا شيخا هاد

شحنّا جانب الملطاط منا ... بجمع لا يزول عن البعاد

لزمنا جانب الملطاط حتى ... رأينا الزرع يقمع بالحصاد

(١) الطبرى ج٤ ص٢٠٤٧.

(٢) ياقوت ج٢ ص٢٧٥.

لناتى معشرا ألبوا علينا إلى الأنبار أنبار السواد[1]

وبعد أن ينقذ خالد عياضا، ويثأر العرب من بكر بن وائل لمقتل عقة ولهزيمة عين التمر، يوجه خالد أمراءه إلى الحصيد والخنافس والزميل ليبيتوا العرب على غرة، ويقتل روزمهر قائد الفرس بيد القعقاع بن عمرو، الذى يفخر بقتله لحليلته فيقول:

ألا أبلغا أسماء أن حليلها قضى وطرا من روزمهر الأعاجم

غداة صبحنا فى حصيد جموعهم بهندية تفرى فراخ الجماجم[2]

واستطاع أبو ليلى أن يهزم المهبوذان فى الخنافس، فقال يفتخر بصنيعه:

وقالوا ما تريد فقلت: أرمي جموعا بالخنافس بالخيول

فدونكم الخيول فألجموها إلى قوم بأسفل ذى أثول

وفينا بالخنافس باقيات لمهبوذان فى جنح الأصيل[3]

وصور الشعر هذا الحلف الغريب من الفرس والروم والعرب، الذين جمعت بينهم الظروف على المسلمين فى وقعة الفراض، ونصر الله المسلمين وقطع دابر الحلف بأيديهم، فقال القعقاع:

لقينا بالفراض جموع روم وفرس غمها طول السلام

أبدنا جمعهم لما التقينا وبيتنا بجمع بنى رزام

فما فتئت جنود السلم حتى رأينا القوم كالغنم السوام[4]

وفى أول لقاء لجيش أبى عبيد مع الفرس فى النمارق يستحر القتال، ويستبسل المسلمون حتى ينتصروا على رستم، ويأسروا قائديه جابان ومردان شاه، فيستبيحوا السواد يجوسون خلاله بعدما هاجروا نحو ربهم فأنالهم أكتاف الفرس، يقول عاصم بن عمرو:

---

(١) ياقوت ج٤ ، ص٩٣٣.

(٢) ياقوت ج٢ ، ص٢٨٠.

(٣) ياقوت ج٢ ص٤٣٣.

(٤) ياقوت ج٣ ص٨٩٤.

لعمرى وما عمرى على بهين   لقد صبحت بالخزى أهل النمارق
بأيدى رجال هاجروا نحو ربهم   يجوسونهم ما بين درتا وبارق
قتلناهم ما بين مرج مسلح   وبين الهوافى من طريق البذارق(١)

ويفزع أهل السواد إلى أبى عبيد يطلبون الصلح، ويقدمون الهدايا والأطعمة الفارسية وتمر النرسيان، بعد أن دانت للمسلمين قرى السواد، واستباحه المسلمون، يقول عاصم بن عمرو:

ضربنا حماة النرسيان بكسكر   غداة لقيناهم ببيض بواتر
وفزنا على الأيام والجرر لاقح   بجرد حسان أو ببرد غوابر
وظلت بلاد النرسيان وتمره   مباحا لمن بين الديار الأضافر
أبحنا حمى قوم وكان حماهم   حراما على من رامه بالعساكر(٢)

وفى قس الناطف تحدث كارثة الجسر، تلك الهزيمة الوحيدة التى لحقت بالمسلمين فى جميع فتوحاتهم، إذ أخذتهم السيوف والغرق والفرار من كل جانب، وقد ترامت أنباء الهزيمة فى بلاد العرب، ورن صداها فى كل قلب، يقول حسان بن ثابت لما بلغته الكارثة بالمدينة:

لقد عظمت فينا الرزيئة إننا   جلاد على ريب الحوادث والدهر
على الجسر قتلى لهف نفس عليهم   فيا حسرتا؟ ماذا لقينا من الجسر(٣)

وعلى الرغم من هذا فإننا لا نجد غير أبيات تنسب إلى أبى محجن الثقفى فى وصف المعركة، ورثاء نفر من شهداء المسلمين، وطبيعى أن تسكت أصوات الشعراء فى هذه المحنة. يقول أبو محجن:

---

(١) ياقوت ، ج٤ ص٥٣٢، ٩٩٥.
(٢) ياقوت ج٤ ، ص٧٧٤.
(٣) ياقوت ، ج٢ ص٨٢.

أنى تسددت نحونا أم يوسف ... ومن دون مسراها فياف مجاهل

إلى فتية بالطف نيل سراتهم ... وغودر أفراس لهم ورواحل

وأضحى أبو جبر خلاء بيوته ... وقد كان يغشاها الضعاف الأرامل

وأضحت بنو عمرو لدى الجسر منهم ... إلى جانب الأبيات جود وناذل

وما لمت نفسى فيهم غير أنها ... لها أجل لم يأتها وهو عاجل

وما رمت حتى مزقوا برماحهم ... إهابى وجادت بالدماء الأباجل

وحتى رأيت مهرتى مزوئرة ... لدى الفيل يدمى نحرها والشواكل

مررت على الأنصار وسط رحالهم ... فقلت: ألا هلْ منكم اليوم قافل

ألا لعن الله الذين يسرُّهم ... رداى وما يدرون ما الله فاعل(١)

وكانت الفيلة قد فعلت أفاعليها فى المسلمين فشتتهم،

وكان أن أذن عمر لمن كان ارتد بالالتحاق بجند العراق ليطهروا، فإذا بهم يتدفقون إلى المثنى، وإذا بهم يخوضون تحت لوائه معركة الثأر والنصر، وقد شاع فى نفوسهم إحساس بالاستماتة، والتفانى للتكفير عما اقترفوه، كما استمات فل الجسر لمسح عار الهزيمة، وكانت معركة البويب معركة لم يشهد المسلمون والفرس أشد منها، حتى كانت العظام تلوح تلالا من هام الفرس وأوصالهم، وتحزر بمائة ألف من جثثهم(٢). وتغنى الشعراء بهذا النصر، وعقدوا أكاليل الغار للمثنيِ. يقول الأعور العبدى الشني:

هاجت لأعور دار الحى أحزانا ... واستبدلت بعد عبدالقيس خفانا

وقد أرانا بها والشمل مجتمع ... إذ بالنخيلة قتلى جند مهرانا

أزمان سار المثنى بالخيول لهم ... فقتَّل الزحف من فرس وجيلانا

سما لمهران والجيش الذى معه ... حتى أبادهم مثنى ووحدانا(٣)

(١) البلاذرى ص٢٥١، الأغانى (سامى)، ج٢١، ص١٤١.

(٢) الطبرى ١/ ٤/ ٢١٩٣- ٢١٩٩.

(٣) الطبرى ١/ ٤/ ٢١٩٣- ٢١٩٩.

obeikandl.com

ووجد أبطال المسلمين فى قتلهم مهران شرفا تنازعه كثيرون منهم، وكثر فى ذلك جدالهم. وكان أشهر من تنازع قتله حسان بن المنذر بن ضرار الضبى، وجرير بن عبدالله البجلى، ويظهر أن حسانا قد طعنه، ثم ضربه جرير بعد ذلك، ولكن حسانا ينكر أن يكون جرير قد شاركه هذا الشرف فيقول:

ألم ترنى خالست مهران نفسه ... بأسمر فيه كالخلال طرير

فخر صريعا والتقانى برجله ... وبادر فى رأس الهمام جرير

فقال قتيلى والحوادث جمة ... وكاد جرير للسرور يطير

فقال أبو عمرو: وقتلى قتلته ... ومثلى قليل وللرجال كثير

فأرسل يمينا (أن رمحك ناله) ... وأكرم إن تحلف وأنت أمير[1]

ثم تكون بعد ذلك المعركة الحاسمة فى القادسية، التى تجهز لها الفرس والعرب بكل ما يطيقون، وحشد لها عمر أهل الرأى والشجاعة والخطابة والنجدة، يحضون الناس ويلهبون مشاعرهم. والتقى سعد بجيش هو خلاصة الأمة الإسلامية مع الفرس فى ثلاثة أيام بثلاث ليال، متصلة الحرب حامية الوطيس، ولعب الشعر دوره فى المعركة، فلم يكن القتال يبدأ قبل أن يمر الشعراء بين الصفوف يرغبون الناس، ويقدحون عزمهم فينشب أهل النجدات القتال، بينما يشعل الرُّجَّاز أُوار الحماس، كما حدث فى أول يوم، فقد برز غالب بن عبدالله الأسدى يرتجز بدء القتال فقال:

قد علمت واردة المسالح ... ذات البيان واللسان الواضح

أنى سمام البطل المشايح ... وفارج الأمر المهم الفادح[2]

فإذا بهرمز أحد ملوك الباب يبرز فيأخذه غالب أسيرا، وخرج بعده عاصم ابن عمرو التميمى يرتجز قائلا:

---

(١) المسعودى، مروج الذهب، ج٢ ص٢٠٣- ٢٠٤.

(٢) المسعودى، مروج الذهب، ج٢ ص٢٠٤.

قد علمت بيضاء صفراء اللبب مثل اللجين إذ تغشاه الذهب

أنى امرؤ لا من يعينه السبب مثلى على مثلك يغريه العتب[1]

وظل القتال دائرا يغذيه الرجاز والشعراء بلهيب لا ينفد، حتى حال الليل بين الفريقين، ولقد أبلى فى هذا اليوم عاصم بن عمرو بلاء رائعا، وهو يقول عن هذا اليوم المسمى بأرماث:

حمينا يوم أرماث حمانا وبعض الناس أولى بالجمال[2]

يشير إلى ما كان من انتداب سعد لتميم لتدافع عن أسد، الذين أضرت بهم الفيلة ضررا بليغا. وفى صباح اليوم الثانى يوم أغواث، الذى أغاث فيه القعقاع المسلمين بجند الشام استطاع المسلمون أن يوقعوا بالفرس فى غيبة الفيلة التى قطع وضنها عاصم فى اليوم الأول، ورفه هذا عن المسلمين، واستمر القتال إلى منتصف الليل، وكفة المسلمين أرجح، وجدد مدد الشام أمل المسلمين، حينما رأوا القعقاع يصول فى صفوف الفرس، يقتل من يلقاه، وكان سعد قد حبس أبا محجن الثقفى، فلما اشتد القتال وتردد تكبير الناس فى أذنه ثارت حميته، واستعفى سلمى زوج سعد أن تحل قيده، وأن تعيره البلقاء فرس سعد، وأقسم أن يرجع فيضع قدمه فى القيد، فرفضت رجاءه فقال:

كفى حزنا أن ترتدى الخيل بالقنا وأترك مشدودا على وثاقيا

إذا قمت عنّانى الحديد وأغلقت مصاريع دونى قد تُصم المناديا

وقد كنت ذا مال كثير وإخوة فقد تركونى واحدا لا أخا ليا

ولله عهد لا أخيس بعهده لئن فرجت ألا أزور الحوانيا[3]

فلما سمعت سلمى شعره رقت له وأطلقته، فاقتاد البلقاء، وركبها وعليه سلاحه، وانطلق يقصف الأعداء بسيفه قصفا منكرا، وسعد يقول: لولا محبس أبى محجن لقلت هذا أبو محجن، فلما انقضى اليوم رجع فوضع قدميه فى القيد، وظل القتال إلى الليل،

(١) مروج الذهب، ج٢ ص٢٠٤-٢٠٥.

(٢) ياقوت ١ ، ص٢١١.

(٣) الطبرى ١/٥/٢٣١٣.

والمسلمون آملون فى الظفر، يفعلون فى الفرس أفاعيلهم، حتى ليقال: إن القعقاع قد زاحف الفرس ثلاثة وثلاثين زحفا، فقتل فى كل منها فارسا، وكان آخرها الذى قتل فيه يزرجمهر، وقال فى قتله:

حبوته جياشة بالنفس هدارة مثل شعاع الشمس

فى يوم أغواث فليل الفرس أنخس بالقوم أشد النخس

حتى تفيض معشرى ونفسي[1]

وفى الصباح الثالث لم يكن القعقاع قد غمض له جفن، فقد سرب جنده تحت جنح الليل إلى المكان الذى أقبلوا منه، وأمرهم أن يتقاطروا مائة مائة، فإذا بهم يفعلون، يتبعهم هاشم بن عتبة فى بقية جند الشام، وأخذ يحمل على الأعداء فيهد صفوفهم، ولكن الفيلة عادت فى هذا اليوم تفعل بالمسلمين كفعلها يوم أرماث وتشتت خيول المسلمين، حتى تمكن القعقاع والربيل من عيونها ومشافرها فولت تثب فى النهر، واشتد القتال واستحر، وخيم الظلام، فلم يفصل بين الفريقين، ولم يكن يسمع غير صليل السيوف وهرير الفرسان. وزاحف القعقاع دون إذن سعد، وتبعته القبائل تحذو حذوه، فما جاء الظهر حتى أظهر الله المسلمين، فهدموا المجنبتين، وانفرج القلب فانقضوا عليه، وبلغ أهل النجدة سرادق كسرى ويه رستم فقتله الله. وكان صوت القعقاع وهو يرتجز بشير الظفر:

نحن قتلنا معشرا وزائدا أربعة وخمسة وواحدا

نحسب تحت اللبد الأساودا حتى إذا ماتوا دعوت جاهدا

الله ربى واحترزت عامدا[2]

كانت القادسة المعركة الفاصلة فى الفتوح الشرقية، ولم ير المسلمون ولا الفرس وقعة أشد منها هولا، فقد فَقَد المسلمون ثمانية آلاف شهيد. وكانَ قُتلى الفرس ثلاثين ألفا، وأبلى أبطال المسلمين فيها بلاء فخروا به، وسجلوه على الدهر فى شعرهم. وكانت

(١) مروج الذهب، ج٢ ص٢٠٦.

(٢) الطبرى ١/٥/٢٣٣٣.

أرجارهم طبولا تدفع بالمسلمين إلى اقتحام الأهوال، وتدفع بهم إلى أن يكونوا نماذج رفيعة لبقية المجاهدين.

وهذا هو عمرو بن معديكرب الزبيدى يصيح طربا كأنه غلام مفتون وهو يرى صفوف الفرس تميل تحت وقع ضرباته:

أنا أبو ثور وسيفى ذو النون　　أضربهم ضرب غلام مجنون

يآل زبيد إنهم يموتون[1]

وقد تخلف عن القادسية كثرة شعر الفتوح الشرقية إذ شهدها نفر من الشعراء المكثرين والمشهورين، وانطلق الشعر على ألسنة الفاتحين، وكأنما هو طقس حتمى من طقوس الحرب والاقتحام، وقد صورت جوانب المعركة تصويرا دقيقا، وصفت فيه الحوادث والمشاعر، وفخر المجاهدون ببلائهم، وأشادوا بما قدموا.

وطريف هذا التنازع الشعرى حول مقتل رستم، الذى اشترك فيه طائفة من كبار الفرسان الشعراء، وتنازعوا فيه دمه، من مثل عمرو بن معد يكرب الزبيدى، وقيس بن مكشوح، وعمرو بن شأس الأسدى، وزهير بن عبد شمس، وغيرهم من الفرسان أمثال طليحة بن خويلد، وقرط بن جماح العبدى، وضرار بن الأزور الأسدى، وهلال بن علفة التميمي:

يقول قيس بن مكشوح:

جلبت الخيل من صنعاء تردي　　بكل مذجج كالليث سامى

إلى وادى القرى فديار كلب　　إلى اليرموك فالبلد الشآمى

وجئن القادسية بعد شهر　　مسومة دوابرها دوامى

فناهضنا هنالك جمع كسرى　　وأبناء المرازبة الكرام

فلما أن رأيت الخيل جالت　　قصدت لموقف الملك الهمام

فأضرب رأسه فهوى صريعا　　بسيف أفلَّ ولا كهام

وقد أبلى الإله هناك خيرا　　وفعل الخير عند الله نامى[2]

(١) الأغانى (ساسى) ج١٤، ص٢٧.

(٢) البلاذرى ص٢٥٩.

وهذا زهير بن عبد شمس ينسب هذا الشرف إلى نفسه فيقول:

أنا زهير وابن عبد شمس ... أرديت بالسيف عظيم الفرس

رستم ذا النخوة والدمقس ... أطعت ربي.. وشفيت نفسي[1]

وهذا عمرو بن شأس الأسدى يفخر بهذا الصنيع وينسبه إلى قبيلته، ويطلقه فى عمومها:

جلبنا الخيل من أكناف نيق ... إلى كسرى فوافقها رعالا

تركن لهم على الأقتام شجوا ... وبالحقوين أياما طوالا

وداعية بفارس قد تركنا ... تبكى كلما رأت الهلالا

قتلنا رستما وبنيه قسرا ... تثير الخيل فوقهم الهيالا

وفر الهرمزان ولم يحامي ... وكان على قبيلته وبالا

تركنا منهم حيث التقينا ... قياما ما يريدون ارتحالا[2]

وأيا كان من قتل رستم، فإنه يبدو أن المتنازعين جميعا قد اشتركوا فى قتله أو ساعدوا عليه، وصور الشعر فى هذه المعركة موقفا دقيقا كاد يودى بوحدة المجاهدين أمام أعدائهم، ذلك أن سعد بن أبى وقاص عاوده أول المعركة مرض كان يتردد عليه، جعله لا يستطيع أن يركب أو يجلس، فهو مكب على وجهه، وفى صدره وسادة يعتمد عليها، ويشرف على الناس من القصر، يرمى بالرقاع فيها أمره ونهيه، وقد نمت هذه الأنباء إلى الفرس فاستبشروا بها، ثم نمى إليهم: أن المسلمين برموا بسعد وتندروا بمرضه، وأن قائلا منهم يقول:

نقاتل حتى أنزل الله نصره ... وسعد بباب القادسية معصم

فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ... ونسوة سعد ليس فيهن أيم[3]

---

(١) البلاذرى ص٢٦٠.

(٢) الطبرى ج٥ ص٢٣٠١.

(٣) الطبرى ١/٥/٢٣٦١.

وبلغ سعدا ما تنذر به الناس، وأن طائفة من وجوه القوم تتهمه وتشغب عليه، وترميه بالخور وضعف العزم، فحز ذلك فى نفسه وأثار غضبه، فأمر بأن يحمل وأشرف على الناس حتى يروا ما به، ثم شتم من شغب، وهم بهم وقال: «أما والله لولا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالا لغيركم، والله لا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم، ويشاغلهم وهم بإزائهم، إلا سننت به سنة يؤخذ بها بعدي»[1]. وإزاء هذا الحزم أعلن الناس ولاءهم وطاعتهم. وقال جرير بن عبدالله البجلي: «إنى بايعت رسول الله ﷺ على أن أسمع وأطيع لمن ولاه الله الأمر، وإن كان عبدا حبشيا». فسرت هذه الروح فى نفوس الجند وسكنت بوادر الفتنة. ويذكر بعض الباحثين أن أبا محجن الثقفى كان فيمن حبسهم سعد فى هذا اليوم بسبب تخرصهم[2]. ويروى أن الشاعر المتخرص هو النعمان ابن قبيصة، وأن عبدالله بن سنان الأسدى جادله بطعنة أخرست صوته إلى الأبد، وذكر أنه لم يفعل هذا إلا حمية لقريش يقول:

لقد غادر الأقوام ليلة أدلجوا ... بقصر العبادى ذا الفعال مجدلا
دلفت له تحت العجاج بطعنة ... فأصبح منها فى النجيع مرملا
أقول له والرمح فى نغض كتفه ... أبا عامر عنك اليمين تحللا
سقيت بها النعمان كأسا روية ... وعاطيته بالرمح سما مثملا
تركت سباع الجو يعرقن حوله ... وقد كان عنها لابن حية معزلا
كفيت قريشا إذ تغيب جمعها ... وهدمت للنعمان عزا مؤثلا[3]

ويبدو فى حديث جرير بن عبدالله البجلى ــ الذى يشبه الاعتذار ــ أنه كان ينفس على سعد إمارة الجيش، ولذلك قال قولته التى تلقفها المتخرصون، وفيها ينسب سعدا إلى الجبن:

(١) الطبرى ٥/ ٣٣٦١.
(٢) هيكل، الفاروق ج١ ص١٦٧.
(٣) الطبرى ج٥ ص٢٣٥٠.

أنا جرير كنيتى أبو عمر قد نصر الله وسعد فى القصر[1]

وقد عرف سعد كيف يرد قالة جرير، عندما أشاد ببطولة أميرين من أمراء الجيش وببلائهما، هما القعقاع بن عمرو، وحمال بن جويه الكنانى، وأظهر استهانته ببجيلة كلها فقال:

وما أرجو بجيلة غير أني أؤمل أجرها يوم الحساب
وقد لقيت خيولهم خيولا وقد وقع الفوارس فى الضراب
فلولا جمع قعقاع بن عمرو وحمال للجوا فى الكذاب
هموا منعوا جموعكم بطعن وضرب مثل تفتيق الإهاب
ولولا ذاك ألفيتم رعاء تشل جموعكم مثل الذباب[2]

وبرغم هذا الجو المضطرب الملتهب الذى سيطر على المعركة فإن فسحة من الوقت ضئيلة، ولحظات من خلو البال ــ فى أوقات الراحة النادرة ــ كانت تتبدى للمجاهدين كالبريق الخاطف على أطراف الأسنة يختلسونها فيعالجون فيها أمورا خاصة تتعلق بحيواتهم الاجتماعية والشخصية.. ومر أن بعض المحاربين كانوا تحملوا بنسائهم، وأن أكثرهم استصحابا لنسائهم يوم القادسية كلنوا بجيلة والنخع، فكان فى النخع سبعمائة امرأة، وفى بجيلة ألف منهن، ولم تستطع أهوال الحرب أن توقف مصاهرة أحياء العرب لهاتين القبيلتين فاستوعبوهن؛ ولذا سميت النخع وبجيلة بأختان العرب أو بأصهارهم[3].

وكانت «أروى» ابنة عامر الهلالية النخعية قد تقدم لخطبتها ثلاثة من المجاهدين، هم بكير بن عبدالله الليثى، وعتبة بن فرقد السلمى، وسماك بن خراشة الأنصارى، وكانت أختها تحت القعقاع بن عمرو، فاستشارته أيهم جدير بها؟ فكان جوابه شعرا يقول فيه:

فإن كنت حاولت الدراهم فانكحي سماكا أخ الأنصار أو ابن فرقد
وإن كنت حاولت الطعان فيممي بكيرا إذا ما الخيل جالت عن الردي
وكلهم فى ذروة المجد نازل فشأنكم إن البيان عن الغد[4]

(١) الطبرى ج٥، ص٢٣٦١.
(٢) الطبرى ج٥ ص٢٣٦٢.
(٣) الطبرى ج٥ ص٢٣٦٣- ٢٣٦٤.
(٤) الطبرى ج٥ ص٢٣٦٤.

وفتح المسلمون المدائن الدنيا على شاطئ دجلة الغربى، وكان عليهم أن يعبروا النهر إلى المدائن القصوى، بالشاطئ الشرقى، واستطاعوا بمعاونة بعض أهل البلاد أن يخوضوا مخاضة فى سرعة أذهلت أهل المدائن، ففوجئوا بالمسلمين دون أن يروا سفينا.

وكان للرجاز شأن كبير فى تشجيع المجاهدين على عبور دجلة، إذ وقف نفر منهم على الشاطئ الغربى يدفعونهم ويبشرونهم ويذكرونهم بالجزاء والثواب، يقول مالك بن عامر بن هانئ وهو أول من عبر دجلة يومئذ:

امضوا فإن البحر بحر مأمور　　والأول القاطع منكم مأجور

قد خاب كسرى وأبوه سابور　　ما تصنعون والحديث مأثور[1]

وكان يزدجرد قد سبق المسلمين وفر إلى حلوان، وغنم المسلمون أمواله وخزائنه وجواهره، فكانت غنائمهم فى ذلك اليوم لا تحصى، مما أسال ألسنة الشعراء فى وصفها، يقول أبو بجيد ـ نافع بن الأسود ـ:

وأسلنا على المدائن خيلا　　بحرها مثل برهن أريضا

فانتشلنا خزائن المرء كسرى　　يوم ولوا وحاض منا جريضا[2]

وطارد المسلمون فى هذا اليوم بغلا كان محملا بجواهر كسرى ومخصصاته من حلى ودروع فألجئوه إلى الماء، وأخرجه زهرة بن حويه وهو يرتجز قائلا:

فدا لقومى اليوم أخوالى وأعمامي　　هم كرهوا بالنهر خذلانى وإسلامي

هم فلجوا بالبغل فى الخضام　　بكل قطاع شئون الهام

وصرعوا الفرس على الآكام　　كأنهم نعم من الأنعام[3]

وبعد فتح المدائن مصرت الكوفة والبصرة، وصارتا مركزين حربيين، أنيط بهما فتح الجناح الشرقى فى هذا الميدان، وصار لكل منهما جند خاص، وقد أشار إلى ذلك عبدة ابن الطبيب فأسماها كوفة الجند فى قوله:

---

(١) أسد الغابة، ج٤ ص٢٨٢.

(٢) الطبرى، ج٥ ص٢٤٢٤.

(٣) الطبرى، ج٥ ص٢٤٤٥.

إن التى وضعت بيتا مهاجرة بكوفة الجند قد غالت بها غول[1]

وكان من أول مجهودات هذين المعسكرين-إخضاع الجزيرة التى كانت بمثابة قاعدة حربية لحلفاء الروم من نصارى العرب، فنفس ذلك عن المجاهدين فى الشام، وقد أشار إلى هذا عياض بن غنم فقال:

من مبلغ الأقوام أن جموعنا حوت الجزيرة يوم ذات زحام

إن الأعزة والأكارم معشر فضوا الجزيرة عن فراخ الهام

جمعوا الجزيرة والغياث فنفسوا عمن بحمص غيابة القدام

غلبوا الملوك على الجزيرة فانتهوا عن غزو من يأوى بلاد الشام[2]

وبفتح الجزيرة استتب للمسلمين أمر العراق.

٣ـ الشعر على طول الدروب إلى خراسان

وتتابعت فتوح أهل الكوفة وأهل البصرة والجيش الضارب الذى فتح العراق على طول الدروب إلى خراسان، ووصف الشعراء هذه المناطق البعيدة التى وطئوها لأول مرة، ورأوها تختلف فى جوها وطبيعتها ومظاهر حياتها اختلافاً بيناً عما عهدوا فى جزيرتهم، وفى مراحل الفتح الأولى فى العراق، فصوروا إعجابهم تارة وعجبهم تارة أخرى، وعبّروا عن أحاسيسهم بالرضا أو السخط بهذه البلاد، وهذا نافع بن الأسود يصف إعجابه بريف الرى فيقول:

رضينا بريف الرى والرى بلدة لها زينة من عيشها المتواتر

لها نشز فى كل آخر ليلة تذكر أعراس الملوك الأكابر[3]

هذا بينما يشكو سراقة بن عمرو الذى وكل إليه أبو موسى الأشعرى فتح الدربند حياته المضطربة هناك فيقول:

---

(١) قايوت ، ج٤ ص٣٢٢.

(٢) ياقوت ، ج٢ ص٧٤.

(٣) ياقوت ج٢ ص٨٩٥.

ومن يك سائلاً عنى فإني بأرض لا يواتيها القرار
بباب الترك ذى الأبواب دار لها فى كل ناحية مغار
نذود جموعهم عما حوينا ونقتلهم إذا باح السرار(١)

وفى فتوح هذه المناطق البعيدة وجد شعر يحن فيه المجاهدون إلى وطنهم، ويتشوقون إلى أهليهم، ويذمون اغترابهم ووحشة هذه المناطق، يقول أحد المجاهدين فى الحنين إلى نجد:

أكرر طرفى نحو نجد وإنني برغمى وإن لم يدرك الطرف أنظر
حنيناً إلى أرض كأن ترابها إذا أمطرت عود ومسك وعنبر
بلاد كأن الأقحوان بروضة ونور الأقاحى وشى برد مخبر
أحن إلى أرض الحجاز وحاجتي خيام بنجد دونها الطرف يقصر
وما نظرى من نحو نجد بنافع أجل - لا - ولكنى إلى ذاك أنظر
أفى كل يوم نظرة ثم عبرة لعينك مجرى مائها يتحدر
متى يستريح القلب إما مجاوز بحرب وإما نازح يتذكر(٢)

ويغلب على شعر الحنين هذا فى مجموعه حزن رفيق ولوعة رقيقة.

وفى الوقت الذى كان جند الكوفة والبصرة يفتحون فيه هذه المناطق كان سعد بن أبى وقاص بعد فراغه من المدائن يقضى على الفتن التى أثارها يزدجرد بإمداده للفرس من حلوان، واستطاع هاشم والقعقاع إحباط هذه الفتن، والقضاء على تجمعات الفرس فى جلولاء، ففر جند الفرس عن المدينة، ويصور أحد الرُّجَّاز الذين شهدوا جلولاء ضراوة القتال فيها فيقول:

يارب مهر حسن مُطهَّم يحمل أثقال الغلام المسلم
ينجو إلى الرحمن من جهنم يوم جلولاء ويوم رستم

(١) ياقوت ، ج١ ص٤٣٧.
(٢) ياقوت، ج٤ ص٧٤٧.

ويوم زحف الكوفة المقدم ... ويوم لاقى ضيعة مهزم

شين أصداغى فهن هرم ... مثل ثغام البلد المحرم

وخر دين الكافرين للفم[1]

ثم طارد القعقاع فل جلولاء إلى حلوان فاحتلها، بعد أن فر يزدجرد إلى الرى فقال القعقاع:

فنحن الأولى فزنا بحلوان بعدما ... أرنت على كسرى الإما والحلائل[2]

ووجه سعد بضرار بن الخطاب إلى ماسبذان شرقى حلوان، حيث كان آذين أحد عظماء الفرس قد جمع جموعا عظيمة من الفرس والعرب، وخرج بهم إلى السهل، فقتله ضرار واستولى على الناحية فقال:

ويوم حبسنا قوم آذين جنده ... وقطرته عند اختلاف العوامل

وزود وآذينا وفهدا وجمعهم ... غداة الوغى بالمرهفات الصواقل

فجاءوا إلينا بعد غب لقائنا ... بماسبذان بعد تلك الزلازل[3]

وأرسل سعد عمرو بن مالك إلى هيت وقرقيسيا، فاضطر أهلها إلى النزول على الجزية، ويبدو أنهم لم يقروا بها إلا بعد عناد وغدر، حتى ليذكر عمرو أنهم قتلوهم بعدما دانوا بالجزية فيقول:

ونحن جمعنا جمعهم فى حفيرهم ... بهيت ولم نحفل لأهل الحفائر

وسرنا على عمد نريد مدينة ... بقرقيسيا سير الكماة المساعر

فجئناهم فى دارهم بغتة ضحا ... فطاروا وخلوا أهل تلك المحاجر

فنادوا إلينا من بعيد بأننا ... ندين بدين الجزية المتواتر

قتلنا ولم نردد عليهم جزاءهم ... وحطناهم بعد الجزا بالبواتر[4]

(١) الطبرى ج٥ ص٢٤٧٢.

(٢) ياقوت، ج٢ ص٣١٧.

(٣) ياقوت ج٤ ص٣٩٣.

(٤) ياقوت ج٤ ص٦٥.

وراح المجاهدون يتبعون يزدجرد، الذى كان يمثل للفرس رمز بلادهم السلبية فتجمع حوله الفلول، وتثور ثائرة الفتنة من حين لآخر، وكان قد فر ـ من جلولاء إلى حلوان، ومنها إلى الرى، فقرميسين، ثم إلى نهاوند ـ أمام جنود المسلمين حيث راح يحشد الحشود لآخر معركة تستهدف إنقاذ ما يمكن انقاذه حتى اجتمع فيها مائة وخمسون ألفا بقيادة الفيرزان[1].

وكان اهتمام المسلمين بها عظيما أيضا، حتى لقد هم عمر بالخروج إليها بنفسه، وقد انتصر المسلمون فيها بفضل الخطة البارعة التى وضعها فرسان المسلمين، ونفذها القعقاع الذى يصور بلاء المسلمين فى قوله:

ونحن حبسنا فى نهاوند خيلنا ... لشر ليال أنتجت للأعاجم

ملأنا شعابا فى نهاوند منهم ... رجالا وخيلا أضرمت بالضرائم

وراكضهن الفيرزان على الصفا ... فلم ينجه منها انفساح المخارم[2]

انتهت مقاومة الفرس الرسمية بوقعة نهاوند، التى تعرف بفتح الفتوح، لأنه لم يكن بعدها حرب خطيرة، وشغل المسلمون بتعقب يزدجرد حتى يقضوا على الشغب الذى يثيره، وكان هذا العمل داخلا فى مهمة الأحنف بن قيس، الذى عقد له لواء خراسان. وكان عمر قد عقد لرؤساء الجند ليفتحوا بلدان الأطراف، فوجه عثمان بن أبى العاص إلى أصطخر وسار ابن زنيم إلى فسادراخرد، وسهيل بن عدى إلى كرمان، وعاصم بن عمرو إلى سجستان، والحكم التغلبى إلى مكران. وكان يزدجرد قد فر من نهاوند إلى أصفهان، فتقدم جند الأحنف إليها، ففر إلى أصطخر، ولكنه لم يأمن إزاء ألوية المسلمين، التى كانت تستبرئ الأهواز وخوزستان، فغادر المنطقة بأسرها إلى المقاطعات العليا من طبرستان، يلبى دعوة جاءته من مرزبانها[3].

---

(١) الطبرى ج٥ ص٢٦٠٨.

(٢) ياقوت ، ج٤ ص٨٣٨.

(٣) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ص١٢٦.

وتقدمت قوات الأحنف تتساقط أمامها مدن خراسان، فاحتلت الطبسين وهراة، ومرو ونيسابور وتطارد يزدجرد حتى تلجئه إلى الهرب إلى خاقان ـ ملك الترك فى ما وراء النهر[1].

وقد صور الشعر هذه الوثبات الجريئة لجند الأحنف فى خراسان، فقال ربعى بن عامر أحد جنده البواسل:

ونحن وردنا من هراة مناهلا ... رواء من المروين إن كنت جاهلا
وبلخ ونيسابور قد شقيت لنا ... وطوس ومرو قد أزرن القنابلا
أنخنا عليها كورة بعد كورة ... نفضهم حتى احتوينا المناهلا
فلله عينا من رأى مثلنا معا ... غداة أزرنا الخيل تركا وكابلا[2]

وأيقن أمراء المقاطعات بانتهاء سلطان يزدجرد فتخلوا عنه. وبعد سلسلة التنقلات التى قام بها قتل فى مرو، فسقطت أسرة آل ساسان، وصور أبو بجيد ـ أحد الفاتحين ـ هذه النهاية بقوله:

ونحن قتلنا يزدجرد ببعجة ... من الرعب إذ ولى الفرار وغارا
غداة لقيناهم بمرو تخالهم ... نمورا على تلك الجبال ونارا
قتلناهم فى حربة طحنت بهم ... غداة الرزيق إذ أراد جوارا
ضممنا عليهم جانبيهم بصادق ... من الطعن ما دام النهار نهارا
فوالله لولا الله لا شيء غيره ... لغادت عليهم بالرزيق بوارا[3]

وكان المسلمون قد بلغوا فى تعقبهم ليزدجرد إلى حدود النهر، ولم يكن عمر يرى الانسياح فيما وراءه، كما كان شأنه يوم أراد الاكتفاء بالعراق، وتمنى لو أن بين السواد والجبل سدا يفصل بين العرب والفرس، حتى أقنعه الأحنف بتأمين تخوم العراق والسواد[4].

(١) ياقوت، ج١ ص٤٠٩.
(٢) ياقوت، ج٢ ص٤١١.
(٣) ياوقت، ج٢ ص٧٧٧.
(٤) الطبرى، ج٥ ص٢٥٦١.

وهم المجاهدون بعبور النهر، ولكن عمر لم ير رأيهم، فاكتفوا بالانسياح فى سواحل كرمان، وتقدموا إلى مكران، ثم حاز الحكم التغلبى كرمان ذاتها ولم يتقدم، وقال فى ذلك مشيرا إلى أوامر عمر:

غداة أدفع الأوباش دفعا ... إلى السند العريضه والمداني

فلولا ما نهى عنه أميري ... قطعناه إلى البلد الزواني[1]

ويكاد يكون عهد عثمان بن عفان تأكيدا للفتح، وقضاء على الانتقاض، فلم يحدث فى هذا الميدان لعهده غير فتح طبرستان، وغدا ذلك شغل أمراء الجند باستعادة أذربيجان ومناطق فارس وخراسان، التى قتل أهلها أميرهم عبيد الله بن معمر، فسير إليهم الخليفة عبدالله بن عامر فاستردها، وقال أحد جنده أسيد بن المتشمس فى ذلك:

ألا أبلغا عثمان عنى رسالة ... لقد لقيت عنا خراسان ناطحا

رميناهم بالخيل من كل جانب ... فولوا صراعا واستعادوا النوابحا

غداة رأوا الخيل العراب مغيرة ... تقرب منهم أسدهن الكوالحا

تنادوا إلينا واستجاروا بعهدنا ... وعادوا كلابا فى الديار نوابحا[2]

وهكذا رافق الشعر موكب الفاتحين شرقا خطوة خطوة، وواكب المد المنطلق إلى غايته طوال الطريق، لم يغادر حادثة إلا سجلها، ولم يترك وقعة إلا صورها.

وهذا ما يجعل شعر الفتوح الشرقية سجلا هاما ووثيقة تاريخية، ومرجعا وجدانيا بالغ القيمة فى الكشف عن عواطف الفاتحين وظروف حياتهم فى الميدان، وما كان يضطرب فى أعماقهم من مشاعر وأحاسيس، صورها الشعر تصويرا واضحا شاملا.

---

١) الطبرى ، ج٥ ص٢٧٠٨.

(٢) ياقوت ، ج٢ ص٤١٢.

الفصل الثالث

الشعر فى فتوح الشام ومصر وأفريقية

١ ـ قلة الشعر على ألسنة الفاتحين

فى اعتقادنا أن وقفة كتلك التى وقفناها من تصنيف الجيوش والإمدادات فى فتح العراق وفارس ضرورية هنا للكشف عن الأسباب الفاعلة التى أدت إلى قلة الشعر على ألسنة الفاتحين فى الشام وفى مصر، وهى كفيلة فى نفس الوقت بالكشف عن طبيعة الاختلاف بين شعر الفتوح فى الميادين المختلفة، وقيمة الإنتاج الشعرى لهذه المناطق فيما بعد عصر الفتوح.

ونحن لا نجد هنا تلك الروايات الواضحة التى وجدنا فى العراق، فى تصنيف الجيوش والأمداد التى فتحته وانطلقت منه إلى فارس وخراسان، وفى الكيفية التى تشكلت بها هذه القوات. وحقا نحن نجد أنفسنا أمام فيض متدفق من الروايات والقيادات والأسماء، مثل: أبى عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص، وشرحبيل، ويزيد ابن أبى سفيان ومعاوية، والوليد بن عقبه وخالد بن سعيد، وعكرمة، وذى الكلاع وغيرهم، ولكننا نجد أيضا أن خلطا بينا قد حدث فى التأريخ لهذه الجيوش والأمداد وزمان انطلاقها، والكيفية التى تم تشكيلها عليها، وقد تغاضى عنها المؤرخون لسبب أو لآخر.

وربما كان سبب الخلط الذى حدث فى هذه الجيوش وقادتها راجعا إلى كثرتها، وإلى الطريقة التى سار عليها الاستنفار والتجنيد، واختلافها فى موقف عن الآخر، ويرجع إهمال الفواصل الزمنية بينها إلى اختلاف القيادات، وتعيين بلدان الفتح قبل مسير القوات إلى الشام، ودوران المعارك كلها فى الشمال والجنوب فى وقت واحد، إلى جانب تعاون الميادين المختلفة فى تعاور الجيوش واستبدالها، وفتح بعض المناطق أكثر من مرة.

ولم يكن التغاضى عن تصنيف الجيوش فى روايات المؤرخين راجعا إلى ذوبان العصبيات القبلية ذوبانا نهائيا ألغيت معه العصبيات، وإنما يرجع ذلك إلى أن الفاتحين فى

هذا الميدان لم يختطوا لهم خطة، ولم يبتنوا محلة أو مدينة فيه كما فعلوا بالعراق، وكما فعلوا فى مصر بعد ذلك، فلم يكتب لهم إقامة فيه، إذ تحولوا عنه إلى مصر.

وقد ساعد على اختلاط تصنيف الجيوش الفاتحة للشام أنها لم تجيش فى كثرتها من المدينة، وإنما خرجت إلى الميدان من العراق، ومن أطراف شبه الجزيرة، حينما استنفر أبو بكر عماله فتصلوا بجند من عمالاتهم.

وبرغم هذا فإننا نستطيع بمعونة الروايات القليلة التى بين أيدينا أن نصنف جند الفتح الإسلامى للشام ومصر فى صورة قريبة من الأصل أو دالة عليه.

كانت الخطوة الأولى فى فتح الشام توجيه خالد بن سعيد بن العاص إلى تيماء، وكان أبو بكر قد عقد له فى ألوية الردة، فنهاه عمر بن الخطاب عن تأميره، ومازال يحرضه على عزله، حتى جعله أبو بكر ردءا بتيماء، على تخوم الشام لا يبرحها، وأن يدعو القبائل التى حلها للانضمام إليه إلا من ارتد، وألا يقاتل إلا من قاتله حتى يأتيه أمره. ونفذ خالد أمر الخليفة، فاجتمعت إليه جموع كثيرة، جعلت عسكره عظيما[1]، وهذه الجموع يمنية بطبيعة الحال، من القبائل الضاربة فى تخوم الشام، كقضاعة وكلب وجهينة وعذرة. وترامى إلى هرقل نبأ خالد، وترامى إلى خالد استعداد هرقل، فكتب إلى الخليفة يستفتيه، ويطلب الإذن بقتال الروم. وكان أبو بكر قد اطمأن إلى انتهاء فتنة الردة وبلوغ خالد بن الوليد إلى الحيرة ورأى أن جموع خالد بن سعيد لا تكفى لمنازلة الروم، فاستشار صحابته ثم عول على أن يستنفر أهل اليمن لفتح الشام. ولقيت دعوته إقبالا شديدا خف على أثرها وجوه اليمن إلى خيلهم وسلاحهم، ونهضوا فى قومهم، وساروا إلى المدينة، وكان منهم ذو الكلاع الحميرى، وقيس بن هبيرة المرادى فى مذحج، وجندب بن عمرو الدوسى فى الأزد، وحابس بن سعد الطائى فى طيئ.

ورافق مقدمهم إلى المدينة كتاب خالد بن سعيد، وقدوم عكرمة فيمن معه من تهامة وعمان والشحر والبحرين، فبعث بهم أبو بكر إلى خالد[2]. وقبل أن تصل هذه الأمداد إلى خالد بن سعيد ترامت إليه أنباء تأليب الروم لقبائل من بهراء وكلب وتنوخ

(١) الطبرى ، ج٤ ص٢٠٨١.

(٢) ابن خلدون ، ج٢ ص٨٣.

ولخم وجذام وغسان، فكتب إلى أبى بكر كرة أخرى يطلب منازلتهم، فأمره بنزالهم، وانتصر خالد على قبائل العرب، ودخل عامتهم فى الإسلام[١].

وعندما التقى خالد بالروم بقيادة باهان وانتصر عليهم، تقدم إلى القسطل، وهزم جيشا آخر للروم على الشاطئ الشرقى للبحر الميت، فتجمعت قوات الروم قبالة تيماء فى أعداد ضخمة، فكتب إلى أبى بكر كتابه الثالث يستمده.

وكان أبو بكر بعد أن استقر أهل اليمن منهمكا فى استنفار من حوله من المهاجرين والأنصار وأهل مكة وعماله، كعمرو بن العاص الذى كان على صدقات عمان، والوليد ابن عقبة وكان على صدقات قضاعة، وكان أمر أبى بكر لهما أن يستخلفا ويندبا الناس مما يليهما لو اختاروا الجهاد فاستجاب إليهما خلق كثير[٢]. فأمر الخليفة عمرا على جيش فلسطين، والوليد على جيش الأردن[٣].

وما لبث خالد بن سعيد حينما وافاه الوليد بن عقبة وعكرمة وذو الكلاع أن التحم بالروم فى مرج الصفر، التى دحر فيها المسلمون، وانحاز عكرمة بالجند، وفر خالد[٤].

وعندما بلغت الهزيمة أبا بكر كان شرحبيل قادما من العراق، فاستعمله الخليفة على عمل الوليد، على أن يفصل بجند خالد بن سعيد، ودعا أبو بكر بيزيد بن أبى سفيان فأمره على ألف من أهل مكة[٥]. وأردفه بأخيه معاوية، ليفصل ببقية جيش خالد ابن سعد[٦].

ثم ندب الخليفة أبا عبيدة بن الجراح، وجعله على جيش عظيم فصل به إلى الشام، وأخذ أبو بكر يرغب الناس فى الجهاد، فكانوا يأتون إلى المدينة حيث يوجههم إلى

---

(١) الطبرى ، ج٤ ص٢٠٨١.
(٢) الطبرى ، ج٤ ص٢٠٨٣.
(٣) الطبرى ، ج٤ ص٢٠٨٤.
(٤) الطبرى ، ج٤ ص٢٠٨٤ ، ٢٠٨٥.
(٥) الطبرى ، ج٤ ص٢٠٨٤، ابن خلدون.
(٦) المرجع نفسه.

الشام، فمنهم من يسير إلى أبى عبيدة، ومنهم من يسير مع يزيد. . يسير كل إلى من أحب[1].

وبعد هذه التعديلات: سمى أبو بكر كور الشام، لكل أمير كورته، فلأبى عبيدة حمص، وليزيد دمشق، ولشرحبيل الأردن، ولعمرو بن العاص فلسطين[2].

وبينما تدور معركة فى بصرى ــ وجيوش المسلمين تتداعى إلى التساند ــ وصل خالد بن الوليد فى كتيبة العراق، التى تضم أصحاب رسول الله ﷺ الذين استأثر بهم دون المثنى[3]، ويجتمع فى اليرموك ــ التى شهدتها كل الجنود الإسلامية ــ ستة وأربعون ألفا، هى كل جند الشام، وكثرتها الكثيرة من عرب اليمن. فجيش خالد بن سعيد الذى تقسمه القواد: عكرمة وشرحبيل ومعاوية ــ كان يمنيا، وكذلك جيش الوليد وجيش عمرو ابن العاص[4]، وأمداد عكرمة وذى الكلاع المكونة من الأزد ومذحج وطيئ وغيرها من قبائل اليمن، وكثرة كتيبة خالد بن الوليد التى كان فيها ألف من الأنصار من أهل بدر. أما جند يزيد بن أبى سفيان فهو ألف من أهل مكة. بينما لا نعلم شيئا عن جند أبى عبيدة، وإن كان المظنون أنه من المهاجرين والأنصار.

وعلى الرغم من هذا فإننا لا نجد أثرا ولو ضئيلا لتكتل هذه العصبية فى شعر الفتح الإسلامى فى الشام، فبذور العصبية التى عانى منها المسلمون فيما بعد فى هذه البلاد، وسيطرت فيها على مقدرات الحياة إلى نهاية الدولة الإسلامية لا يوجد لها أثناء عملية الفتح ظل ولو شاحب يدل عليها، ففضلا عن انصهار هذه العصبيات فى بوتقة العمل الموحد فى سبيل الله والعقيدة الواحدة، وفضلا عن التضامن تحت شعار الوحدة وإنكار الذات والتفانى فى سبيل الهدف الأسمى، لم تكن هناك فرصة لظهور هذه العصبيات، إذ انعدم التوازن بينها، فالكثرة الكثيرة من أهل اليمن. وإذا كنا نعرف أن

---

(١) الطبرى ، ج٤ ص٢١٠٨.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) الطبرى، ج٤ ص٢٠٩١.

(٤) يذكر المؤرخون أن جيش عمرو لفتح مصر كان من محاربى الشام، ويذكر ياقوت ج٣ ص٨٩٣ أن كثرته كانت من عك، بينما يذكر ابن عبد الحكم أن جميعه من عك ص٥١، أو أن ثلثه من غافق، وكذلك يذكر الكندى أيضا، الولاة ص٨.

أهل اليمن ليسوا كأهل نجد والحجاز كلفا بالشعر ومعرفة به واستجابة له، فربما يفسر ذلك انعدام هذه الروح العصبية فى الشعر، وسيزول عجبنا إذا ما عرفنا أن شعر الفتح الإسلامى فى الشام ليس إلا ما خلفه جند خالد بن الوليد الذين رافقوه من العراق، وفيما عدا شعرهم لا نجد إلا قلة نادرة، إذا ما قورنت بشعر الفتح فى العراق وفارس، وهذا يرجع إلى أنها كانت فى جمهورها يمنية، ومعنى ذلك: أن القبائل اليمنية التى فتحت الشام جنت على الشعر فى هذه المناطق، ووسمتها بالإجداب والضحالة، وجعلتها من بعد مهبطا للشعراء الوافدين.

وحدث نفس الأمر فى فتح مصر، إذ يجمع المؤرخون على أن الجيش الذى فتح مصر بقيادة ابن العاص كانت كثرته من أهل اليمن، من عك وغافق[1]، فضلا عمن دخلوها معه ممن أسلم من عرب الشام قبل اليرموك[2]، وأولاد الأبناء اليمنيين الذين كانوا بصنعاء، ومسلمة الروم من بنى ينة، وبنى الأزرق، وبنى روبيل، ممن عرفوا بالحمراء، وكانوا قد أسلموا قبل اليرموك[3]. كما انضم إليه عرب سيناء من قضاعة، وبعد أن فصل عن العريش لحق به قوم من بنى راشدة وقوم من لخم. وبهذا يشكل أهل اليمن نواة الجند الإسلامى فى مصر، وتتابع الأمداد بعد ذلك. وإذا كان المؤرخون يختلفون حول هذه الأمداد وأعدادها فإنهم لا يذكرون شيئا عن كيفية تصنيفها[4].

وبرغم هذا فإننا لو رجعنا إلى تسمية القبائل فى الخطط التى نزلتها لاتضح لنا أن كثرتها من عرب اليمن[5]، ونعلم أن هذه القبائل لم تشترك جميعها فى الفتح، وإنما وفدت كثرتها بعد أن استدعاها ذووها من الفاتحين. وتذكر بعض الروايات أن جموعا كبيرة من هذيل قد دخلت مصر مع أمداد عمر لعمرو[6]، وأنها نزلت فى الحمراء الوسطى[7]. وقد تميز دخول المسلمين إلى مصر بمثل ما تميز به دخولهم إلى العراق، من

(١) راجع ما سبق فى الصحيفة السابقة.
(٢) الانتصار لابن دقماق ج٤ ص٥.
(٣) ابن عبد الحكم ص١٢٩، المقريزى ج١ ص٢٩٨.
(٤) ابن عبد الحكم ص٥٣.
(٥) صبح الأعشى ج٣ ص٣١، ٣٢.
(٦) الأغانى ، ج٢٠ ، ص١٦٧، الإصابة ج١ ص١١٧.
(٧) المقريزى ، ج١ ص٢٩٨.

تخطيط المدن وسكناها، ولم يرتض عمر أن يسكن عمرو وجنده الإسكندرية، حتى لا تتغير طباعهم العسكرية، وحتى لا يكون بينه وبينهم ماء، إذا أراد أن يركب راحلته حتى يقدم عليهم فعل، فتحول عمرو إلى الفسطاط[1].

وقد ساعد اشتراك كثرة الجند فى أصول يمنية واحدة على عدم تشقيق الخصومات، فشحب لون القبلية، وبرزت نوازع جديدة، هى نوازع المدنية التى أفاءتها الحياة الجديدة فى المدينة، إذ لم تستطع تحذيرات عمر ومحاربته لاتجاه الترف فى البناء أن تحول دون تطورها، إلى أن تكون مدينة تامة لها ما للمدن من مرافق الحياة والعمران الذى عرف عن العرب من أهل الجنوب[2].

وقد ظل عرب اليمن غالبين على من سواهم فى مصر زمنا طويلا، حتى إن عبدالعزيز بن مروان قال لأبيه حين ولاه مصر: «كيف المقام ببلد ليس فيه أحد من بنى أمِّي؟»[3].

وكان نتيجة هذا أننا لا نكاد نجد صدى لأحداث الفتح الإسلامى لمصر فى الشعر، بل لا نكاد نجد شعرا فى الحقيقة، وكل ما هنالك أبيات قليلة لبعض الهذليين، لا تكاد تصور جانبا من جوانب الفتوح، ولا تكاد تكشف عن شيء من مشاعر الفاتحين، فبينما لم يفلح الشعر فى الشام فى إعطائنا صورة كاملة للفتوح كاد لا يوجد فى مصر شعر يعطينا شيئا ولو يسيرا عن ظروف الفتح.

٢ ـ الشعر فى الشام

كان لكثرة القبائل اليمنية فى جند الشام أثر كبير فى قلة المحصول الشعرى، الذى تخلف عن الفتوح الإسلامية هناك، فإن الشعر الذى بين أيدينا قليل جدا، حتى إنه ليقصر عن تصوير حوادث الفتح وسيرها وما دار فيها، ولا يفلح فى إعطائنا صورة كاملة أو قريبة من الأصل للمحاربين فى بلائهم ومشاعرهم وأحاسيسهم بالمعارك التى

---

(١) ابن عبد الحكم ص٩١.

(٢) ابن عبد الحكم ص٩٢.

(٣) الكندى ، الولاة ص٤٧.

خاضوها، وكل ما نجده أبيات قليلة يقولها المجاهد فى أعقاب المعركة، أو بيت أو بيتان يرتجزهما الراجز فى أثناء بروزه للقتال، وفى حملته على العدو، أو الفخر بنفسه، فى موقف معين، أو رثاء صديق، أو رثاء عضو من أعضائه.

ويبدو أن قصر المدة التى استغرقها فتح الشام، وعدم انفساح المنطقة لتوغل المسلمين إلى مدى أوسع كانا من أسباب اختفاء شعر الحنين والتشوق، والشعر الذى يصور الشئون الخاصة بالجند، من أمثال ما رأينا فى شعر الميدان الشرقي. ومهما كان مدى الافتراق بين الميدانين فلنحاول التعرف على الكيفية التى استطاع بها المحاربون فى هذا الميدان تصوير حوادث الفتح وظروفه بالقدر الذى أتيح لهم أن يصوروها.

وقد تقدم أن أبا بكر اهتاج للشام، فعقد لواء حربها لأربعة من مشاهير قواد المسلمين، وعين لكل منهم مهمته، فكانت مهمة أبى عبيدة فتح حمص والجابية، وكانت مهمة ابن العاص فتح فلسطين، بينما كانت وجهة يزيد بن أبى سفيان دمشق، ووجهة شرحبيل بن حسنة الأردن[1]، وبعد هذا تختلف الروايات فيما كان من أمر هذه الجيوش، وهل خاضت بعض المعارك وهى موزعة، أو ابتدأت معاركها مجتمعة؟ وفى الحقيقة أننا لا نجد فى كتب التاريخ ما يقنع بصحة ترتيب وقائع الفتح فى الفترة الأولى من فتح الشام إقناعا منطقيا.. فعدا معارك خالد بن سعيد، والوليد بن عقبة مع باهان، وقبائل العرب الضاربة فى تخوم الشام لا نسمع بشيء إلا بوصول كتيبة خالد بن الوليد، وما يقرره أحد المجاهدين فى كتيبته من تسلسل المعارك التى خاضها على نحو ما أشرنا إلى ذلك سابقا.

وكان خالد بن الوليد قد فوز من قراقر، إلى سوى، إلى أرك، وأتى تدمر، ثم القريتين، ثم أتى حوارين، وقصم، ظافرا حتى أغار على بنى غسان فى مرج راهط يوم فصحهم[2]، ثم سار حتى نزل قناة بصرى، فتقابل مع جند أبى عبيدة وشرحبيل ويزيد ورابطوا عليها، حتى صالحت بصرى على الجزية[3]. ويعد اعتساف خالد الصحراء بهذه

(١) الطبرى ، ج٤ ص٢٠٩٠.

(٢) مرج راهط هى بصرى أذكى شام الطبرى ، ج٤ ص٢١٠٨.

(٣) الطبرى ، ج٤ ص٢١٢٥.

الطريقة الفذة عملا معجزا فى اختصار الطريق والتزود بالماء[1]، مما تغنى به الرجاز، من أمثال أبى أحيحة القرشى، الذى قال فى خالد:

لله در خالد أنى اهتذا والعين منه قد تغشاها للقذى

معصوبة كأنها ملئت ثرى فهو يرى بقلبه ما لا يرى

قلب حفيظ وفؤاد قد وعى[2]

وقال أحد الرجاز فى نفس المعنى ــ متغنيا ببراعة دليله رافع الطائى ــ :

لله در رافع أنى اهتدى فوز من قراقر إلى سوى

خمسا إذا ما سارها الجبس بكى ما سارها من قبله إنس يرى[3]

واجتمعت جيوش المسلمين فى اليرموك، واستطاع خالد فى يوم إمارته أن يدور خلف جيش الروم فحصرهم، ثم شن هجوما عنيفا عليهم وعلى حلفائهم الغساسنة، فتهافت معظمهم قتلى فى النهر، وكان خالد قد قسم الجيش إلى كراديس، جعل عليها فرسان المسلمين كالقعقاع وعكرمة، واستفتح القعقاع يرتجز، وقد برز للنزال قائلا:

يا ليتنى ألقاك فى الطراد قبل اعترام الجحفل للوراد

وأنت فى حلبتك الوراد[4]

وتبعه عكرمة قائلا:

قد علمت بهكنة الجواري أنى على مكرمة أحامي[5]

وتظهر أهمية موقعة اليرموك فى أنها فتحت الطريق إلى أجزاء الشام كلها، وقررت مصيرها، وتبدو هذه الأهمية فى كثرة الشعر والرجز الذى صورها، فقد استنفدت كل الشعر الذى تركته لنا الفتوح فى الشام تقريبا. وأكثر فيها الرجاز بصورة خاصة، فأشادوا

(١) الطبرى ، ج٤، ص٢١٠٨.
(٢) الإصابة ج٧ ص٤.
(٣) ياقوت، ج٣ ص١٧٢.
(٤) الطبرى ، ج٤ ص٢٠٩٦.
(٥) الطبرى ج٤ ص٢,٠٦٦.

obeikandl.com

ببلائهم، وبما قدموا فداء لعقيدتهم. فهذا حياض بن قيس القشيرى يخاطب فرسه، وينشد رجله التى قطعها الروم فى اليرموك فيقول:

أقدم حذام إنها الأساورة . ولا تغرنك رجل نادرة

أنا القشيرى أخو المهاجرة أضرب بالسيف رءوس الكافرة[1]

ثم يشد على أعدائه فيقتل من الروم عددا كبيرا، حتى استحق أن يفخر ببلائه أحد بنى أبيه فقال:

ومنا ابن عتاب وناشد رجله ومنا الذى أدى إلى الحى حاجبا[2]

وهذا القعقاع بن عمرو ــ يفاخر ببلائه ونجدته يوم اليرموك، وإجابته الداعى فى كل ملمة يقول:

يدعون قعقاعا لكل كريهة فيجيب قعقاع دعاء الهاتف[3]

وبينما تكثر أبيات الرجز فى هذه الوقعة لا تكاد القصائد أو المقطوعات يكون لها وجود، اللهم إلا مقطوعة واحدة قليلة عدد الأبيات للقعقاع بن عمرو، يصور فيها تهافت الروم فى الواقوصة، ويشيد بكتيبة خالد، التى أبلت فى الشام بلاءها في العراق. . قال:

ألم ترنا على اليرموك فزنا كما فزنا بأيام العراق

قتلنا الروم حتى ما تساوى على اليرموك مفروق الوراق

فخضنا جمعهم لما استحالوا على الواقوصة التبر الرقاق

غداة تهافتوا فيها فصاروا إلى أم تعضّل بالذواق[4]

---

(١) الإصابة ، ج٢ ص٦٨ وقد توهم الشاعر فدعى الروم أساروه.

(٢) المرجع نفسه .

(٣) الإصابة ج٥ ص٢٤٤.

(٤) ياقوت، ج٤ ص٨٩٣.

ويتجه المسلمون إلى فحل فيحاصرونها، ويتركون جندا لمناوشة الروم، بينما تتجه كثرة الجيش إلى دمشق، وقد فتحها الله عليهم بعد اشتباك مع الروم فى مرج الصفر وحصار طويل للمدينة، ففتحت أبوابها للمسلمين صلحا من جانب، وحربا من جانب آخر. وكان عبدالرحمن بن أبى سرح ــ أحد جند يزيد بن أبى سفيان ــ يتوقع تسليم المدينة والجند رابضون على أبوابها، فقال يصف انتظار الجند بباب توماء مع ابن أبى سفيان ــ :

ألا أبلغ أبا سفيان عنا بأننا ... على أحسن حال كان جيش يكونها

وأنا على باب لتوماء نرتمي ... وقد حان من باب لتوماء حينها[1]

وبعد أن فتحت دمشق عاد المسلمون إلى فحل، حيث التقوا بثمانين ألفا من الروم وانتصروا عليهم انتصارا مبينا، صوره القعقاع بن عمرو فى قوله:

وغداة فحل قد رأونى معلما ... والخيل تنحط والبلا أطوار

ما زالت الخيل العراب تدوسهم ... فى حوم فحل والهبا موار

حتى رمين سراتهم عن أسرهم ... فى روعة ما بعدها استمرار[2]

ووصف علقمة بن الأرث العبسى تنكيل المسلمين بالروم فقال:

ونحن قفلنا كل واف بآله ... من الروم معروف النجاد منطق

ونحن طلقنا بالرماح نساءهم ... وأبنا إلى أزواجنا لم تطلق

وكم من قتيل أرهقته سيوفنا ... كفاحا وكف قد أطيحت وأسوق[3]

ووجه أبو عبيدة بعد فحل جنود العراق، وعليهم هاشم بن عتبة والقعقاع بن عمرو كأمر أبى بكر كما وجه بالأعور السلمى إلى طبرية فحاصرها حتى فتحها الله عليه، وفى ذلك يقول الربيع بن مطرف بن بلخ التميمى أحد جنود الأعور:

---

(١) ياقوت ، ج١ ص٤٤٣.

(٢) ياقوت ، ج٣ ص٨٥٣.

(٣) الإصابة ، ج٥ ص١١١.

وإنا لحـلالـون بالثـغـر نحـتـوي ولسنا كـمن هر الحـروب من الرعب
منعناهم مـاء البـحـيـرة بعـد مـا سما جمعهم فاستهولوه من الرهب[1]

واتجه أبو عبـيدة بعد ذلك مع خالد بن الوليـد إلى الشمال، حيث التقـوا بجيشين للروم، عليهـما توذر البطريق وشنس، وحال الليل بين المسلمين والروم، وبيت الفـريقان فى انتظار الصبح، وعند الفجر نظر خالد فلم ير توذر ولا جنده، فأيقن أنه يريد دمشق، فطار فى أثره، وكان يزيد بن أبى سفـيان قد علم بمقدمه فخرج إليـه أمام دمشق، وجاءه خالد من خلفه، فحصر بين المسلمين حتى قضوا عليه وعلى جنده.

وعاد خالد ليجد أبا عبيدة قد قضى هو الآخر على شنس، وفى ذلك تروى أبيات من الرجز تصور صنع المسلمين بتوذر وشنس، وتنسب إلى خالد بن الوليد تقول:

نحن قتلنا توذرا وشوذرا وقبله ما قد قتلنا حيدرا
نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا[2]

وانطلق المسلمون بقيادة أبى عـبيدة شمالى الشام فحاصروا حـمص شتاء كاملا، ظن الروم أن البرد سيـهلكهم فيه، لكنهم تراجعوا إلـى الصلح، وتوالت الفتوح، ودخل المسلمون قنسرين وحلب وأنطاكية حصن المسيحية الحصين ودانت لهم الجزيرة، وصالحت الرها ونصيبين وأرمينية[3].

وعجيب ألا يكون لهذه الفتـوح صدى فى الشعر برغم تعددها، وطول المدة التى استغرقـتها وبرغم الفرص المتاحة فى الحصـار وفراغ الجند، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى أن معظم هذه البلاد قد فتح صلحا.

وتقدّم المسلمـون فى جنوب الشام ففتحـوا أجنادين بعد معركـة عنيفة، قتل فـيها ثمانون ألفـا من الروم، وفر الأرطبون قائدهم إلى بيت المقـدس، وصور زياد بن حنظلة فراره فقال:

---

(١) الإصابة ،ج٢ ص٢١٩.
(٢) الطبرى ، ج٥ ص٢٣٩٠.
(٣) الطبرى ، ج٥ ص٢٠٥٧.

ونحن تركنا أرطبون مطردا ... إلى المسجد الأقصى وفيه حسور

عشية أجنادين لما تتابعوا ... وقامت عليهم بالعراء نسور

عطفنا له تحت العجاج بطعنة ... لها نشج نائى الشهيق غزير

فطمنا به الروم العريضة بعده ... عن الشام أدنى ما هناك شطير

تولت جميع الروم تتبع إثره ... تكاد من الذعر الشديد تطير

وغودر صرعى فى المكرّ كثيرة ... وعاد إليه الفلّ وهو حسير[1]

وعجيب أيضا أن يخلو شعر الفتح من تصوير غبطة المسلمين التى لا حدود لها بتسليم بيت المقدس، وما لذلك التسليم من معان ودلالات بالغة القيمة فى انتصار الإسلام وسيطرته على معقل المسيحية ومهبطها، ولما لقيه المسلمون فى حصارها من صنوف القسوة واستماتة الروم وعصف المجانيق، وكل ما نجده أبيات قليلة، تصور مبارزة حدثت بين أرطبون وأحد جند المسلمين يدعى عبدالله بن سبرة، فبينما عبدالله يقتله قطع أرطبون أصابع يده بضربة من سيفه، فقال عبدالله:

فإن يكن أرطبون الروم أفسدها ... فإن فيها بحمد الله منتفعا

بنانتان وجرموز أقيم به ... صدر القناة إذا ما آنسوا فزعا

وإن يكن أرطبون الروم قطعها ... فقد تركت بها أوصاله قطعا[2]

وسقطت الشام العريضة فى أيدى المسلمين، وألقت إليهم بخيرات أرضها، وبعيش خصيب لا يعد مآكله، كما عبر عن ذلك زياد بن حنظلة حيث قال يتذكر فتح الشام فى عام الرمادة على ما يبدو:

تذكرت حرب الروم لما تطاولت ... وإذ نحن فى عام كثير نزائله

وإذ نحن فى أرض الحجاز وبيننا ... مسيرة شهر بينهن بلابله

(١) ياقوت، ج١ ص١٢٦.

(٢) الطبرى، ج٥ ص٢٤٩٠، وانظر الإصابة ج٥ ص٦٠، ص٩٢.

وإذ أرطبون الروم يحمى بلاده		يحاوره قرم هناك يساجله
فلما رأى الفاروق أزمان فتحها		سما بجنود الله كيما يصاوله
فلما أحسوه وخافوا صواله		أتوه وقالوا: أنت ممن نواصله
وألقت إليه الشام أفلاذ بطنها		وعيشا خصيبا ما تعد مآكله
أباح لنا ما بين شرق ومغرب		مواريث أعقاب بنتها قرامله
وكم مثقل لم يضطلع باحتماله		تحمل عبئا حين شالت شوائله[1]

ولكن الروم لم ييأسوا، فاستمالوا القبائل العربية فى شمالى الشام، وأبحرت حملة بقيادة قسطنطين بن هرقل، فألقت مرساها على شاطئ أنطاكية واستولت عليها، وانضمت إليها القبائل المتمردة[2]. وثار الشمال على أبى عبيدة الذى ألفى نفسه محصورا فى حمص، فراسل الخليفة يستمده، وأزمع عمر أن يسير بنفسه إلى الشام أول الأمر، ثم ما لبث أن عدل تحت إلحاح صحابته من أولى الرأى، فسير الأمداد إلى أبى عبيدة، وأفلح المسلمون فى عزل القبائل العربية عن الروم، حيث طوقها عبدالله بن عبدالله بن عتبان، فقفلت إلى مضاربها مؤثرة السلامة[3]، حيث صالحت على ما كان من صلحها قبل ذلك، فقال عبدالله يخاطب أحد زعمائهم ويؤمنه فى نصيبين:

ألا من مبلغ عنى بجيرا		فما بينى وبينك من تعادي
فإن تقبل تلاقى العدل فينا		فأنسى ما لقيت من الجهاد
وإن تدبر فما لك من نصيب		نصيبين فيلحق بالعباد
وقد ألقت نصيبين إلينا		سواد البطن بالخرج الشداد
لقد لقيت نصيبين الدواهي		بدهم الخيل والجرد الرواد[4]

(١) الطبرى ، ج٥ ص٢٤١٠.
(٢) الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص٥٢.
(٣) ابن الأثير ، الكامل ج٢ ص٢٢٤.
(٤) ياقوت ، ج٤ ص٧٨٨، ٧٨٩.

وكسر المسلمون خطوط المقاومة الرومية بعد عزل القبائل عنها، فانسحبت الحملة بالهزيمة، وسجل الشعر اهتياج عمر لأنباء الثورة فى شمالى الشام، وإزماعه السفر إليها فقال زياد بن حنظله:

سما عمر لما أتته رسائل ... كأصيد يحمى صرمة الحى أغيدا

وقد عضلت بالشام أرض بأهلها ... تريد من الأقوام من كان أنجدا

فلما أتاه ما أتاه أجابهم ... بجيش ترى منه الشبائك سجدا

وأقبلت الشام العريضة بالذي ... أراد أبو حفص وأزكى وأزيدا

فقسط فيما بينهم كل جزية ... وكل رفاد كان أهنا وأحمدا[1]

وسجل الشعر أيضا ذلك الحدث الجلل الذى ألم بأرض الشام وعاصر ضنك المسلمين فى الحجاز، وهو طاعون عمواس المروع، الذى أهلك كثرة من المسلمين تبلغ خمسة وعشرين ألفا، ووقف بعمر فى الطريق عند سرع، بالقرب من تبوك، فرجع نزولا على رأى الجماعة، وأعقب رجوعه اشتداد الطاعون وفتكه، فهلك جماعة من قادة المسلمين ووجوههم، كأبى عبيدة ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبى سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وغيرهم، ويروى شعر طريف فى تصوير هذا البلاء وفعله فى المسلمين، وإخلادهم إلى الإيمان بالقدر والجبر، كما عبر عن ذلك أحد المسلمين عندما رأى غلاما هاربا على حمار فقال:

لن يعجزوا الله على حمار ... ولا على ذى غرة مطار

قد يصبح الموت أمام السارى[2]

وشكا بعض المسلمين من اجتماع الطاعون والطعن، كقول عبدالله بن سبرة:

إن أقبل الطعن فالطاعون يرصدني ... كيف التقاء على طعن وطاعون[3]

---

(١) الطبرى ، ج٥ ص٢٤١١.

(٢) الطبرى ، ج٥ ص٢٥٢١.

(٣) الإصابة ، ج٥ ص٦٠.

وكذلك سجل الشعر بعض الحوادث العامة فى تاريخ الفتح الإسلامى، كأمر ابن الخطاب بطبخ الأنبذة حتى يذهب ثلثاها، حينما بلغه وقوع بعض الجند فى الخمر. وقد روى بعض المؤرخين ارتباط ذلك بما ابتلى به المسلمون من الطاعون، فقال ذو الكلاع فى رثاء الخمر:

ألم تر أن الدهر يعثر بالفتى ... وليس على صرف المنون بقادر

صبرت ولم أجزع وقد مات إخوتى ... ولست على الصهباء يوما بصابر

رماها أمير المؤمنين بحتفها ... فخلانها يبكون حول المعاصر[1]

وهكذا يعطينا الشعر فى الشام صورة باهتة وناقصة لحوادث الفتح ولمشاعر الفاتحين، ولكنها تبدو أكثر إشراقا أمام الصورة التى يعطيها لنا الشعر فى فتوح مصر وأفريقيا.

٢ـ الشعر فى مصر وإفريقية

كنا قد التمسنا العذر لميدان الشام فى قلة المحصول الشعرى للفتوح، لأن الفاتحين لم يتخذوا بها مساكن ولم يختطوا فيها خططا، وبأن آماد الفتح وأبعاده لم تيسر لهم الانطلاقة الطويلة التى يسرها امتداد الفتح فى آماد الأرض المنفسحة فى خراسان.

فما العذر الذى يمكن أن نتذرع به أمام ندرة المحصول الشعرى للفتوح فى مصر، وقد اختط العرب خططا، وأقاموا بها يحاربون الروم، ويقضون على فتنهم وغدرهم قرابة ثمانى سنوات، بينما كانت آماد الفتح ليست ذات حدود فى الانطلاق عبر أفريقيا والسودان انطلاقة واسعة؟

إن القبائل التى شكلت جند الشام وأمداده هى نفس القبائل التى فتحت مصر واستقرت فيها من بعد الفتح، وإذا كنا لاحظنا أن قوات من العرب النزاريين قد حاربت فى الشام فترة تحت إمرة خالد بن الوليد ويزيد بن أبى سفيان فتركت آثارا لها فى شعر الفتوح هى تقريبا كل ما لدينا من هذا الشعر فإننا نلاحظ هنا: هجرة قبائل معينة، اشتهرت بالشعر، وأقامت بمصر إقامة دائمة، وأشهر هذه القبائل: قبيلة هذيل، وبرغم

(١) الإصابة، ج٢ ص١٨٣.

هذا ــ فليست لها آثار تدل على اشتراكها فى الفتوح اشتراكا واضحا، وقد هاجرت هذه القبيلة إلى مصر فى أعداد كبيرة، جعلت بعض المؤرخين المتقدمين يعتقدون أنه لم يعد لها فى الحجاز حى يطرق[1]. وظهرت آثار هذه الهجرات الضخمة فوصفوا إقفار ديارهم، وخلوها بعد هجرة ذويهم، كما نجد فى شعر البريق بن عياض وأبى صخر والحارث بن أسامة[2].

وعلى الرغم من أن هذه الأشعار وجدت بسبب من الفتوح إلا أنها لا تدل بطبيعة الحال على حوادثها ولا تتعرض لها على الإطلاق.

وهناك قصيدة تروى لأبى العيال الهذلى أحد الذين اشتركوا فى الفتوح بمصر والشام يتحدث فيها عن الحرب والحصار، ويوجهها إلى معاوية بن أبى سفيان، وعمرو ابن العاص، وعبدالله بن سعد بن أبى سرح على صورة رسالة. ويذكر أنها كانت على زمن معاوية. ولكننا نعجب لذكر والى مصر فى عهد عمر وعثمان فى هذه القصيدة التى تسير على هذا النحو:

من أبى العيال أبى هذيل فاعرفوا ... قولى ولا تتجمجموا ما أرسل

أبلغ معاوية بن صخر آية ... يهوى إليه بها البريد المعجل

والمرء عمرا فأته بصحيفة ... منى يلوح بها الكتاب المنمل

وإلى ابن سعد إن أؤخره فقد ... أزرى بنا فى قسمة إذ يعدل

وإلى أولى الأحلام حيث لقيتهم ... حيث البقية والكتاب المنزل

أنا لقينا بعدكم بديارنا ... من جانب الأمراج يوما يسأل

أمرا تضيق به الصدور ودونه ... مهج النفوس وليس عنه معدل

فى كل معركة يرى منا فتى ... يهوى كعزلاء المزادة يزغل

أو سيد كهل تمور دماؤه ... أو جانح فى صدر رمح يسعل

---

(١) ابن خلدون ، ج٢ ص٣١٩.

(٢) انظر ديوان الهذليين ، ج٢ ص١٩٩، ٢٠٢ ، ج٣ ص٥٨.

حـــتى إذا رجب تخـلـى وانقــــضى ... وجـمـاديـان وجـاء شـهـر مــقـبل

شــعــبـــان قـدرنـا لوفق رحـــيلهم ... سـبــعـــا يعـد لـهـا الوفـاء فـتكمل

وتجــردت حـــرب يكون حـــلابهـــا ... علـقــا ويمـريهـــا الغـــوى المبـطل

فـاسـتـقبلـوا طرف الصـعيـد إقـامـة ... طـورا وطورا رحـلـة فــــــتـنقـل

فـــترى النبــال تعـــيـر فـى أقطارنا ... شــمـــســــا كـأن نصـــالهن الـسنبل

وترى الـرمــــاح كـــأنما هـى بيننا ... أشطـان بئـــــر يوغـلون ونـوغل(١)

وفى رأينا أن القصيدة كانت فى محاولة الروم استعادة مصر للمرة الثانية، بحملة مانويل الداخلة فى مشروع قسطانز، لاستعادة الإمبراطورية الرومية. لمصر والشام. وهذه الحملة كانت فى عام ٢٥هـ، فى الوقت الذى كان فيه معاوية بن أبى سفيان واليا للشام، ويعمل بكل قواه لرد طرف الحملة الثانى عن الشام، إذ كانت حملة مزدوجة ذات شعبتين. وليست هناك حوادث تاريخية جمعت بين هؤلاء الذين يتوجه إليهم الشاعر برسالته إلا هذه الحادثة، فمعاوية أمير الشام يقضى على حملة مانويل فى الشام، وتمنى أمامه بهزيمة فادحة. وعبدالله بن سعد هو أمير مصر، وعمرو بن العاص فاتحها، وأميرها السابق الذى تصدى لهذه الحملة بعد أن أتى به الخليفة وكلفه بها. وقد توغلت حملة مانويل داخل الأراضى المصرية، وكان عددها كبيرا، إذ قدمت فى ثلاثمائة سفينة(٢)، وتقدمت من الإسكندرية التى استسلمت مباشرة إلى حصن بابليون، ووقفت على أطراف الصعيد كما يقول أبوالعيال ونهد عمرو إليها فى نقيوس، حيث أذاقها الهزيمة، فعادت تتحصن بالإسكندرية وتنصب المجانيق على أسوارها، فسواها عمرو بالتراب. ودخل المدينة فى الوقت الذى انتهى منه معاوية من القضاء على شق الحملة فى الشام.

والقصيدة فى جملتها ليست إلا استصراخا للأمراء المعنيين بأمر الدفاع عن مصر والشام لرد العدوان الذى تعرضت له، وإجلاء المعتدين الذين أقاموا بالبلاد ما يقرب من أربعة أشهر.

---

(١) وقد لاحظ بعض الدارسين أن القصيدة ليست كاملة، وأن تسلسل الفكرة فيها منعدم. (مصر العربية (ص٩٢) ، وانظر القصيدة فى ديوان الهذليين ج٢ ص٢٥٢، والإصابة ج٧ ص١٤٣.

(٢) ابن عبد الحكم ص١٥٧.

وتجمع الروايات التاريخية على أن أبا ذؤيب الهذلى قد خرج إلى مصر يريد الغزو فى إفريقيـة مع جيش عبدالله بن سـعد بن أبى سرح سنة ٢٦هـ[١]، ولكنها تختلف فى أمر بنيـه الخمسة، الذين ذكـر أنهم لاقوا حتفـهم فى مصر أو فى غـيرها، ولكن بعض الروايات تؤكد أنـهم هلكوا بالطاعون فى مـصر[٢]. وقد رثاهم أبو ذؤيب بقـصيدة من عيون الشعر العربي[٣]، سنتعرض لها فيما بعد.

وقد رأى بعض الدارسين: أن أبا ذؤيـب قد يكون قال بمصـر قصيـدته التى يذكر فيها بلاء عبدالله بن الـزبير فى فتح أفريقية[٤]، وهذا شيء لا تدل عليه القصيدة ولكنها تدل فى وضوح على ظروفـها ومناسبتهـا وتؤيدها الروايات التاريخية التـى عرضت لفتح أفريقية كما سنرى.

وهكذا يشعر الدارس لشعر الفـتح الإسلامى فى مصر بالأسف ولا يملك إلا أن يتعلل بما يتعلل به غـيره من الدارسين، من ضياع شعر القبـائل التى نزلت مصر، إذ لا يمكننا أن نتصور أن تحدث هذه الفتوح الخطيرة فى مصر، وأن تقع الوقائع العنيفة هذه فى بابليون، وأم دنين، وعين شـمس، والكريون والإسكندرية ولا يكون لها أثر فى الشـعر، بل من العجيب حقا أن يقتتل المسلمون مع الروم فى الكريون بضعة عشر يوما متصلة ــ حتى يصلى عمرو صلاة الخوف ــ ولا نجد لذلك أثرا إلا فى إشارة لكثير فيما بعد الفتح بسنوات عديدة حينما قال:

ومرت سراعا عيرها وكأنها　　دوافع بالكريون ذات قلوع[٥]

وتروى بعض الروايات أبيـاتا قليلة من الرجـز، منسوبة إلى عـمرو بن العـاص، وتذكر أنه قالها فى حصار بابليون، يصف فيها المنجنيق على هذا النمط:

---

(١) انظر أغانى دار الكتب ج٦ ص٥٦، الشـعر والشعراء ج٢ ص٦٢٥، وفتـوح البلدان ص٢٢٦، وابن الأثير ج٣ ص٧٠، الإصابة ج٧ ص٦٣.

(٢) الخزانة ج١ ص٢٠٣.

(٣) ديوان الهذليين ج١ ص١-٣ ، الاستيعاب ص٦٦٥، أسد الغابة ج٥ ص١٩٠ ، الإصابة ج٧ ص٦٤.

(٤) مصر العربية ص١٠٤.

(٥) ياقوت ، ج٤ ص٤٧١.

يوم لهمدان ويوم للصدف
والمنجنيق فى بلى تختلف
وعمرو يرقل إرقال الشيخ الخرف[1]

وتذهب بعض الروايات الأخرى: إلى أنه قالها فى معركة صفين[2] ولكننا لا نستطيع أن نعتقد أن عمرا قال هذه الأبيات. ونحن لا ننكر أن لعمرو شعرا كثيرا روته كتب التاريخ، على عادة الرواة الذين لا يكادون يتركون واحدا من الصحابة من غير أن يرووا له شعرا. والذى يمنعنا من الاعتقاد فى صحة نسبة هذه الأبيات إلى عمرو واضح فى الأبيات نفسها، فليس عمرو بن العاص باعتداده بنفسه وشموخه واعتزازه هو الذى يقول عن نفسه هذا القول، ويصف نفسه بهذا الوصف.

ولا نجد أثرا لمغامرات المسلمين فى بلاد النوبة واستعصائها عليهم فى الشعر، فلم يهتج شاعر مثلا لوصف ما جرى من معارك عنيفة، ذهبت فيها رماح القوم بأحداق المسلمين.

وفى إفريقية التى فتحها عبدالله بن سعد بن أبى سرح، والتقى فيها بجرجير فى معركة عنيفة، وأصاب المسلمون فيها غنائم وفيرة لا نجد ما يصور هذه الأحداث، إلا أبياتا لأبى ذؤيب الهذلى، يمدح فيها عبدالله بن الزبير الذى اغتنم فرصة قتل فيها جرجير. ويبدأ أبو ذؤيب أبياته بالنسيب وينتقل منه إلى وصف السحاب، ثم يعود إلى النسيب فيخلطه بمدح ابن الزبير ويشير إلى رحلتهما معا فيقول:

وصاحب صدق كسيد الضرا ... ء ينهض فى الغزو نهضا نجيحا
وشيك الفضول بطىء القفو ... ل إلا مشاحا به أو مشيحا
يريع الغزاة وما إن يريـ ... ـع مضطمرا طرتاه طليحا
كسيف المرادى لا ناكلا ... جبانا ولا جيدريا قبيحا

(١) ابن عبد الحكم ص١٦٢.
(٢) وقعة صفين، ص٤٦٣.

قد أبقى لك الأين من جسمه ... نواشر سيد ووجها صبيحا

أربت لأربته فانطلقـ ... ـت أزجى لحب الإياب السنيحا

على طرق كنحور الركا ... ب تحسب آرامهن الصروحا

بهن نعام بناها الرجا ... ل تبقى النقائض فيها السريحا[1]

والأبيات تعطى الصورة لتوثق أواصر الصداقة بين الرجلين ومتابعة الشاعر للفارس فى انطلاقته، وربما تبرر هذه الصداقة ما يروى من تلازمهما حتى ليكون ابن الزبير هو الذى يوسد الشاعر فى ضجعته الأخيرة منصرفهما من غزوة إفريقية فى بعض الروايات[2]. وقد قال الشاعر المجاهد وهو يستعد لرقدته الأخيرة واصفا حفرته التى دفن فيها:

مطأطأة لم ينبطوها وإنها ... ليرضى بها فراطها أم واحد

قضوا ما قضوا من رمها ثم أقبلوا ... إلى بطاء المشى غبر السواعد

فكنت دنوب البئر لما تبسلت ... وسربلت أكفانى ووسدت ساعدي[3]

ولسنا نجد ظلا ولو باهتا يصور انسياح الفاتحين فى أفريقية وفتحهم لبرقة وطرابلس وما بينهما وما حولهما كودان وفزان، اللهم إلا ما يتردد فى كتب التاريخ من شكوى المسلمين من اختصاص الخليفة عثمان بن عفان لمروان بن الحكم بخمس الفيء الذى جاء من أفريقية، فيقول عبدالرحمن بن حنبل فى هذا المعنى:

وأحلف بالله جهد اليمين ... ما ترك الله أمرا سدى

ولكن جعلت لنا فتنة ... لكى نبتلى بك أو نبتلى

دعوت الطريد فأدنيته ... خلافا لما سنه المصطفى

ووليت قربك أمر العباد ... خلافا لسنة ما قد مضى

(١) ديوان الهذليين ، ج١ ص١٣٥ - ١٣٦ ، الأغانى (دار الكتب) ج٦ ص٢٦٦، وابن قتيبة ج٢ ص٦٣٥.

(٢) أسد الغابة ج٥ ص١٨٩، الاستيعاب ص٦٦٦، الخزانة ج١ ص٢٠٣.

(٣) الشعر والشعراء ج٢ ص٦٤٠- ٦٤١.

وأعطيت مروان خمس الغنيمـ ... ـمة آثرته وحميت الحمى

ومالا أتاك به الأشعري ... من الفيء أعطيته من دنا

فإن الأمينين قد بينا ... منار الطريق عليه الهدى

فما أخذا درهما غيلة ... ولا قسما درهما فى هوى(1)

وجلى أن هذه الأبيات لم يقلها الشاعر فى المعركة، وإنما قالها فى شبه الجزيرة، يلوم فيها على الخليفة تفريطه فى فيء المسلمين ومحاباته أقاربه، وليس هناك أشعار وراء هذه الأبيات التى لا تصور من الفتح إلا جانبا فرديا شاحبا من جوانب المعركة، وبذلك لا نجد فى الشعر آثارا للتجربة الهائلة التى كنا نتوقع أن نرى لها نتائج أدبية خطيرة، لما كان من عنف المعارك، وقسوة القتال، واختلاف البيئة وجدتها على الفاتحين، وغناتها بالعناصر الجديرة بالوصف، والملهمة بالتعبير.

ولهذا لا يمكننا أن نعزو انعدام التعبير الشعرى هنا لانعدام المثيرات، فإن التجربة حافلة بالأحداث المثيرة، والأحاسيس المختلفة الحقيقة بالتعبير والتصوير.

ولا نملك إزاء ما نجد من تقصير الشعر فى رسم جوانب تجربة الفتوح الإسلامية فى الشام، وندرة الشعر أو انعدامه فى مصر وأفريقية، إلا أن نقرر ما سبق أن قررناه من أن جل الفاتحين لهذه الميادين كانوا من عرب اليمن، الذين لم يرزقوا ما رزق العدنانيون من اقتدار على التعبير الشعرى، وأن ما وجد فى الشام من الشعر لم يكن إلا نتيجة لوجود بعض القبائل العدنانية التى استقرت لفترة ثم رحلت، وأن ما وجد بمصر لم يكن إلا نتيجة لوجود بعض قبائل عدنان الشهيرة بالشعر، وربما ضاع فى مصر شعر لقبائل أخرى لم تصل إلينا دواوينهم، كما وصل إلينا ديوان هذيل. ولا شك أن من أهم الأسباب الفاعلة فى قلة الشعر فى مصر والشام وأنه لم يدون، وأن الذين كتبوا عن الفتوح كانوا فى جملتهم من مؤرخى العراق ورواته، وكذلك كان رواة الشعر، ومن ثم ضاع الشعر الذى نظم فى الفتوح بغربى الدولة. على أنا كما قدمنا نفترض إلى جانب ذلك أن قلته ترجع إلى أن كثرة القبائل المهاجرة هناك كانت يمنية، والشعر فى مضر لا فى

(1) الاستيعاب ج1 ص٤١٠، ٤١١ ، أغانى دار الكتب ج٦ ص٢٦٨.

اليمن، ومما يدل على ما نذهب إليه من ذلك أن مسألة مثل فشو اللحن على ألسنة العرب الفصحاء حينما تعرض لها الجاحظ فى البيان والتبيين لم يذكر لنا شيئا عن مصر، وإن كان ذكر عرضا شيئا عن لحن بعض الخلفاء الأمويين، ولكنه لم يعرض للشعب العربى فى الشام ومصر، وفى نفس الوقت نراه يعرض فى تفصيل لفشو اللحن على ألسنة الكوفيين والبصريين، وما ذلك إلا لأن الرواة كانوا من العراق، وعنوا بتدوين كل ما يتصل به، ولم يعنوا بتدوين الظواهر اللغوية فى الغرب.

ومعنى ذلك أن الشام ومصر وشعراءهما حتى فى العصر الأموى لا يأخذون مجالا واسعا فى الرواية الأدبية أو اللغوية، فما بالنا بعصر الفتوح؟

***